

GHADIRI

AHADITH

R

2269
3745
311

[illegible]

Princeton University Library

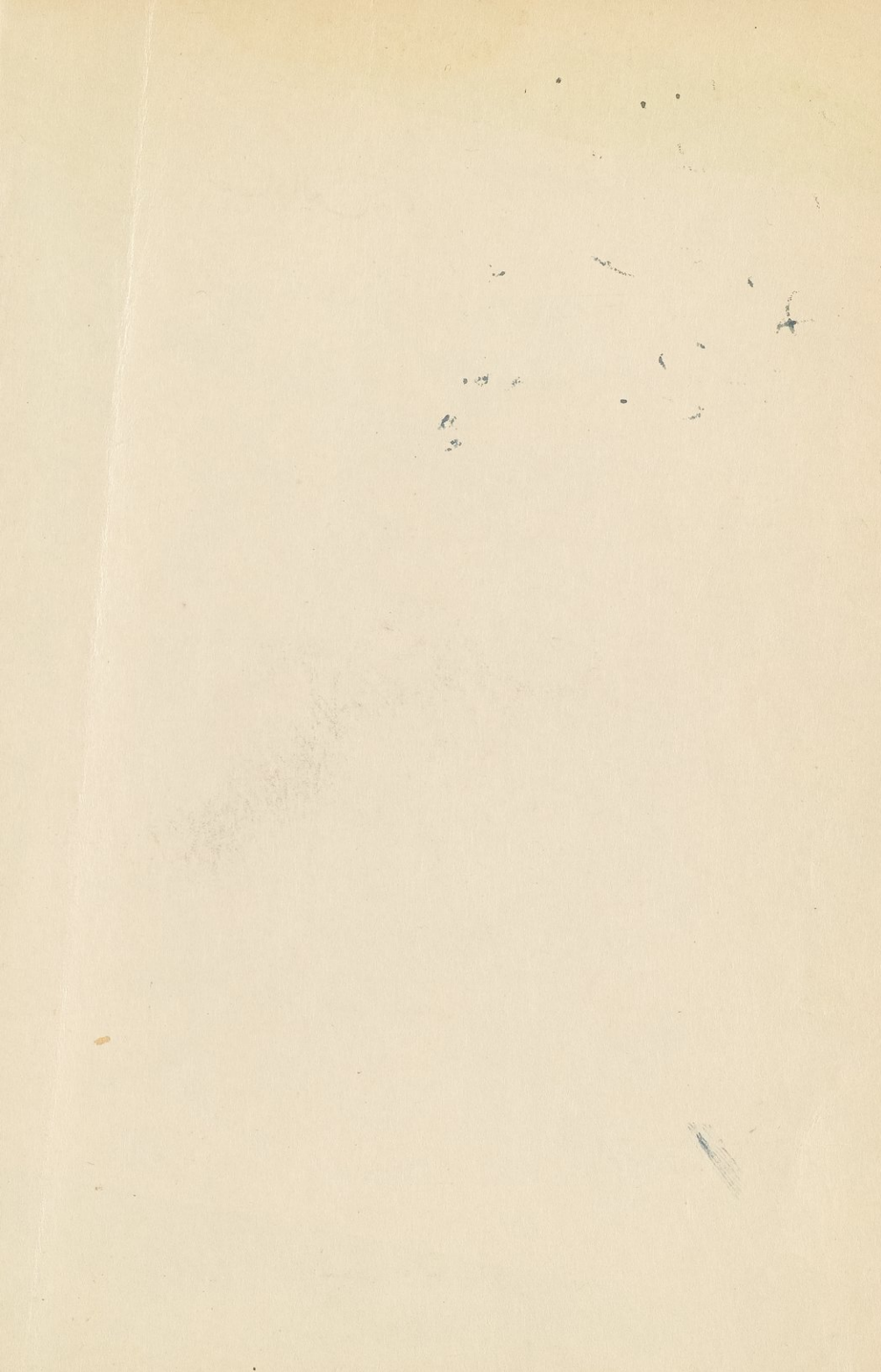


32101 073553305

نهاد الغادري

الحناوين

جميع الحقوق محفوظة



al-Ghādirī, Nihād

الحديث النبوي

الرسالة في فضله

نهاد الغادري

أمره في فضله

الحديث النبوي

٩٥٢
١١
٢٢

Ahādith

الحديث النبوي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى - حلب

مطبعة الضاد

(RECAP)

2269

3745

311

الهداء

الى الجسد:

الذى أرادنى بغير ظفر
ولادنا ب ، فى دنيا الشظا ر
والشباب ، أقدم كمنه
الحداديت .

9-10-70 1943

ج

فهرس

الموضوع	الصفحة
أما قبل	٧
في المقالة العربية	٩
وظيفة الادب	١٧
شيء من التاريخ و شيء من الحديث	
في النكتة والنادرة	٢٥
مأساة اللغة العربية	٣٣
في المهنة	٦٧
أبو محجن	٧٣
راعي الغنم - من صور البطولة -	٨٢
بين الشعبي والاخلطل	٨٩
زرياب - معلم الناس المروعة -	٩٧

كتب المؤلف :

مناقشات في الأدب - مهمة الادب ووظيفته . أمثلة ، وفصول
تطبيقية في النقد - قيد الطبع

زرياب صاحب حضارة
الاندلس - حياته واثره في الحياة الفنية والاجتماعية
قيد الطبع

نزعات وحركات اشتراكية
في التاريخ العربي - اول محاولة في المكتبة العربية لتفسير
التاريخ العربي تفسيراً اشتراكياً .
قيد التحرير

القبلة:

كنت احب ان ارسل هذه الأحاديث بغير مقدمة لها ولا تقديم
ولكنني ذكرت قول ابن بسام:

ما فيه ليت ولا ، لولا ، فتنقصه وانما أدركته حرفة الأدب

فبدا لي ان اجعل تقديم الكتاب ، كلمة في حرفة الأدب . هذه
الحرفة التي تلحق بالانسان لحق المرض ، فيلحقه بها نقص القدر ،
وهوان الشأن ، ونزول المسكاة .

ولكن ، هل الأدب حقاً حرفة تدرك الأديب فتنقصه ؟

لقد كان الأدب العربي في قرون خلت يعيش في ظل الدولة
والارستقراطية العربية فكانت تعينه وتمده وتقويه ، وكانت تقدره حق
قدره وتنزله منزلته التي هي له . ثم جاء القرن العشرون بديموقراطيته
فنقل الأدب من رعاية الدولة والطبقة الارستقراطية الى رعاية الشعب .
فالشعب هو الذي يفرض منزلة الأديب في المجتمع ، فيرتفع بها او ينزل ،
باقباله عليه او اعراضه عنه .

ولكن الأدب العربي - والفكر بوجه عام - اصبح اليوم - عندنا -

اضيع من الايثار في مأدبة اللثام . فلا ارسطوقراطية ترعاه ؛ ولا شعب يقبل على قراءته وتشجيع كتابه ، لأن معظمه جاهل ، ومثقفه ضعيف الثقة بكل ما هو عربي ، قليل الايمان . فهو يعرض عن قراءته ليقبل على قراءة الادب الاوروبي غنمه وثمينه دون اختيار ولا تفريق .

ولقد يكون لهذا القارئ بعض العذر في كثرة الغث فيما ينتج ، وكثرة الاجادة فيما ينتجه الاديب الاوروبي . ولكن الذي لا شك فيه ان كثيراً مما ينتج او بعضه جيد يستحق القراءة ويستحق التشجيع .

وثمة حقيقة اعتقد بها وأؤمن ، فما لم يقبل الشعب على القراءة فلن يكون عندنا ادب ولا كتابة ولا ادباء وكتاب ، لأن الأديب والكتاب يفعلان بالاقبال والتشجيع فيندفعان للتجويد .

هات لي شعباً كشعب اوروبا وقراء كقراءه ، أعطك ادباً كأدبه ، وانتاجاً كنتاجه .

وبعد :

فان هذه الاحاديث لم اضعها لتجتمع في كتاب فقد انشأتها في اوقات متباعدة مختلفة ، وكان بعضها استجابة الحرفة ، وبعضها استجابة الوجدان ، فليأخذها القارئ كما شاء ، وليحكم لها او عليها بما شاء .

اما انا ، فحسبي اني القيت في صحراء هذه الارض بذرة ، فان أجنثها ، خيراً . وان نبذتها ، فقد عملت لأرضي ، لا ليرضى الناس .

في المقالة العربية

« حديث أدب من محطة الاذاعة السورية بدمشق »

لا أريد ، لأتني لا أستطيع في هذه العجالة من الحديث أن ادخل في التفاصيل . فالمقالة العربية تاريخ قديم وحديث ، والمقالة مقام في الأدب العربي بوجه خاص والفكر العربي بوجه عام ، والمقالة وضع كائن ووضع يجب أن يكون .

وفي المقالة العربية ضعف ، ولهذا الضعف اسباب ، وهذه الاسباب متصل بعضها بالثقافة ، وبعضها بالنفس ، وبعضها بالتاريخ .

والمقالة العربية بعد هذا ظاهرة عقلية كما سيحي معنا في الحديث .

لذلك كانت الاحاطة المفصلة ليست موضوع حديث يذاع ، أو محاضرة تلقى ، أو مقال يكتب .

وانما أريد أن اتحدث حديث الاحاطة السريعة فأقف عند النقاط الرئيسية للموضوع ، مستوعباً موجزاً ، لاثيرها فحسب . واقول اثيرها فحسب لأنني اعتقد أن مهمة الحديث كمهمة المقال ، أو المحاضرة لا تتعدى الاثارة ، أي فتح الباب . . والميدان بعد فيه متسع ورعاية .

وتاريخ المقالة الحديث هو تاريخ الصحافة ، اوائل القرن الماضي ،
فقد ظهرت بظهورها ، ونمت معها ، وكان للصحافة اثر بارز في تكوينها
وتشكيلها .

اما تاريخها القديم فيرجع الى عهد معاوية حيث انشأ ديوان الرسائل
فكانت الرسالة ، ثم الى القرن الرابع للهجرة حيث كتب بديع الزمان
الهمداني مقاماته المعروفة .

والرسالة والمقامة شديداً الشبه بالمقالة من حيث قصر النفس ،
وان يكن موضوع الاولى اقتصر على اداء الاغراض السياسية اول
نشأتها ، ثم تطورت فأدت اغراضاً اخرى عند عبد الحميد ، وابن المقفع
والجاحظ والمعري .

وموضوع الثانية أي المقامة ، اقتصر عند بديع الزمان على قصص
صغيرة ادارها على متسول هو ابو الفتح الاسكندري ، كان يطوف من
مكان الى مكان مستجدياً بفصاحته . ودائماً كان ابو الفتح هذا يتلاقى
مع راو له يحكي اخباره هو عيسى بن هشام . وكانت القيمة الاولى في
هذه المقامات للغة لا للفكرة ، ولقد تعتبر المقامة ايضاً تاريخاً للقصة .

على اننا اذا اوغلنا بعض الشيء في التاريخ قبل القرن
الرابع وبعده ، والقينا نظرة عامة على نتائج العرب الفكري ، وجدنا
المقالة بطابعها العام من حيث قصر النفس ظاهرة عقلية متميز بها
التاريخ العربي .

ولن نجد ما نقت وبمحت الا القليل من هذا الانتاج يطلق من
حدود المقالة ، اي حيث يكون النفس طويلاً والاحاطة عريضة ، واكثر

هذا الانتاج مترجم ، واكثر منتجيه من اصل غير عربي .

وهنا نقف لتسأل عن أسباب هذه الظاهرة :

أتراها الطبيعة وعواملها البيولوجية فعلت فعلها في العقل العربي ؟
أتراها المعيشة ؟

أتراها الطفرة التي قذف بها الاسلام العرب على الحياة يقودونها
مسلمة العنان ؟

أتراه الاختلاط السريع ؟

أترى هذا كله ، أو بعضه ، اثر في انتاج العرب الفكري فجعله
في اكثره على جودة بعضه قصير النفس وكدت اقول مخطوف النفس .
لست اشك في ان استجابة النفس العربية لكل هذه العوامل
مجتمعة ، وغيرها ، التي رافقت الانطلاق العربي والاسلامي هي التي
حددت طابع الانتاج ورسمت خطوطه .

إذن فالمقالة ليست جديدة علينا ، وإذن فتاريخها مع الصحافة ليس
تاريخاً جديداً ، بل نستطيع ان نعتبره امتداداً جديداً لتاريخ قديم .
امتداداً تأثر كغيره بأسلوب الحياة ، فتعددت اغراض المقالة بعد ان
كانت محصورة وارتدت الطابع التفكيرى للحضارة الحديثة ، ومواضيعها .
وقد اثر تعدد اغراض المقالة على قيمتها تأثيراً كبيراً فقد غدت
شيئاً مهماً ذاقية ، بل غدت شيئاً خطراً اذ انهما أصبحت الوسيلة
الاقوى للتوجيه والتأثير في مختلف ألوان النشاط الفكري . وبخاصة
الناحية السياسية التي تسلمت على الحياة تسلطاً مربعاً .

ومصدر الخطورة في قوة المقالة وسيطرتها ، وخاصة السياسية منها ،
انها لا تستعمل في الغالب اداة شريفة للتوجيه نحو مثل عليا او غايات
انسانية نبيلة .

فهي تنزع في الاكثر منزع المصالح الفردية والغايات التي يسعى
اليها نفر من الناس يرون في الحياة فرصة تهتبل ، للعيش ، وتحسين
اوضاعهم كأفراد على حساب حياة الجماعة .

من هذا كان خطر المقالة كبيراً ، ولكننا لن نقصر البحث على
المقالة السياسية ، فهي لون وان يكن اكثر ذيوغاً الا انه ليس كل شيء
في موضوع المقالة ، فقد اصبحت وسيلة التعبير عند الكاتب العربي في
كل ما يعرض له وما يفكر فيه وما يحيب عنه . فهي اذن الوسيلة شبه
الوحيدة للتعبير عن الادب والثقافة عامة في الحياة العربية .

ولهذا اسباب عامة وخاصة :

العامة منها : انها نسخت كما أسلفت او حلت محل المقامة والرسالة
الشبهيتين بها .

والخاصة :

١ - سطحية الكاتب العربي وقصر نفسه

٢ - الرغبة بالشهرة . فالمقالة ملك الصحافة وللصحيفة سيطرة
على القاريء العربي بما تحمله من عنصري السهولة والسرعة .

والكي تعرف ما اذا كانت المقالة العربية قد أدت الغاية الرئيسية
او قلّت بما يجب ان تقوم به المقالة ، يجب ان نحدد الغاية من هذا
اللون من الكتابة .

ولكي نحيب اجابة اقرب الى الصحة والصواب نضع هذا السؤال :
هل في ملك المقالة ان تعبر تعبيراً كاملاً عن غاية ثقافية ؟ أو
بشكل آخر : هل في ملك المقالة ان تكون ثقافة !

اما أنا فأجيب في غير تردد : لا . لاني لا اعرف ثقافة تكونت
بغير جهد ، ولا أعرف جهداً يبذل في غير الكتاب ، الكتاب ذي
الموضوع الواحد ، والنفس الطويل ، فهو وحده يملك الاحاطة بالموضوع
الاحاطة المفصلة .

اما المقال فليست مهمته ان يعطى ولا ان يكون ثقافة لأن نفسه
يقصر ، ولأنه يقف عاجزاً عن تخطي الشباب والمفاوز ، واجتياز
المسافات والامداء .

وانما مهمة المقال ان يثير ، يثير مشكلة . مهمته ان يثبه ، يثبه الى
فكرة . مهمته ان يوميء ، لا اكثر ولا اقل ايضاً . ومتى خرج عن
هذه المهمة ضاع ولم يحقق غاية ، فلا هو بعث على التفكير ، ولا هو انزل
على البحث مشكلة ، ولا هو اعطى بعد هذا رأياً مفصلاً كاملاً .

ثم ان القارئ مرهق بفعل اضطراب وجوه الحياة في القرن
العشرين . فانباهه شارد ، وقدرته على التفكير قد انحلت ، فهو يأخذ
ما يأخذه خطأ . وهو يوطد نفسه حين يمسك بالصحيفة ، وحتى بالكتاب
احياناً كثيرة ، على بذل اقل الجهد ، اي على القراءة السلبية ، السريعة .
قراءة عدم الفهم . فلا سبيل اذن الى تحميل المقال ما يكبد ذهن القارئ
في معرفته وتفصيله ، اذ ان الكاتب يدفع القارئ حين ذاك دفعاً الى
ان يلقي جانباً بما كتب .

ولا اريد ان يتبادر الى الذهن اني اشجع او ادعو الى الكتابة الحاملة . اي الكتابة التي لا تنظمها فكرة واضحة ولا رأي محدود . الكتابة المشوشة كأحراش الطبيعة المهملة المتروكة .

ولا اريد ايضاً ان يتبادر الى ذهن احد اني اوجه المقالة او احدد اغراضها ، فذلك ما لا حق لي ولا لغيري فيه . وانما انا ارسم حدودها العامة . ارسم لها الاطار الواسع . اما داخل هذا الاطار فان موضوع المقالة ، عنصرها المحرك للعمل ، اي الباعث على التأثير والتعبير ، هو الذي يحدد وينظم الوضع الداخلي للمقالة . ويجب ان لا نغفل هنا طريقة الكاتب وقدرته على التعبير .

وليس المقالة بعد هذا ان تعالج موضوعاً بروح الكتاب اي بالرسم والهندسة ، والتحديد والتركيز . ليس المقالة ان تلقى نتيجة ولا ان ترسم قاعدة ولا ان تعطي قانوناً ، ولا ان تركز انفعالاً . اي انه ليس المقالة ان تبلور الشعور والاحساس في فكرة ودراسة فتنقلها من المنطقة الحارة ، منطقة الانفعال ، الى المنطقة الباردة ، منطقة التفكير .

مهمة المقالة محصورة في الاثارة على نحو يحرك الخيال ، اي يهيئ الجو ، ويكون الادراك . وما لي لا اقول ان مهمة المقالة ان تكون السوط يلهب ظهر الكسل .

ثم هل لي ان اذكر هنا الحرارة ، ولا احددها بالدرجة . ولكنني لا اريدها في درجة التوهج والاشراق ، قليل من الحرارة ، حرارة الانفعال وحرارة التعبير ، ولا بأس من السخرية المسحوبة على جو الموضوع فانها الملح تعدل الطعم . ويمكن موقف الكاتب من القارئ

موقف الزميل ، موقف المحدث ، يهمس في اذنه باستمرار ، وحذار من موقف المعلم ، وحذار من الوعظ .

استطيع الآن ان اقول على ضوء هذا التعريف والتحديد لاطار المقالة العام ان المقالة العربية لم تحقق كل شيء من غاية المقالة . وانها ليست بعد ، في اكثرها طبعاً ، سوي محاولة ، كصنع التمثال من مادة رخوة قبل صبه في قوالب الجبص او النحاس .

ولعل ضعف المقالة العربية مبعثه ان كتابها لم يدركوا بعد الغاية من المقالة ادراكاً واضحاً محدداً .

وهناك اسباب اخري للضعف منها تحكم اللفظ والاسلوب ، وهما عيب في كل انتاجنا الفكري قديمه وحديثه . فالكلمة عندنا تجر كلمة ، والسجعة تخطف سجعة ، والجملة تسحب جملة ، دون ان تكون هنالك حاجة تعبيرية اليها .

ومن اسباب الضعف ايضاً التحييد والتركيز والهندسة وهذه كما اسلفنا من مقومات الكتاب ، وليس دائماً .

ومنها ان السذين يكتبون يكتبون دون وعي سابق للموضوع . فالكثابة عندهم مجرد رغبة ، ويجب ان يطاوعهم القلم والفكر .

وهناك كتاب موهوبون فعلا ولكن الصحافة استعبدتهم بالشهرة ، فهم مضطرون ان يسلقوا آراءهم سلقاً ايجاروا سرعتها . والشهرة هذه بعد قد استعبدت الجيل العربي كله .

ولست أحاول ان اغض من قيمة المقالة العربية ، او ان اصرف كتابها عنها ، وكلهم كتابها ! فقد اصبح من المستحيل عليهم حتى وان

توفرت لهم امكانية النفس الطويل والاحاطة العريضة ، والثقافة العميقة
الشاملة ان يتراجعوا عن كتابة المقالة الى الكتاب ، لأن الجمهور لن يقبل
حين ذاك على ما يكتبون . وقد ذكرنا ان القاريء اصبح لا يرضيه إلا
تفكير السندويتش .

وليس امام الكاتب العربي عندي ، لكي يجعل لنفسه قراء الا ان
يتخلى عن اسلوب المقال ، فيجعل منه وسيلة تبعث على البحث والتفكير ، لا
غاية يعطي فيها الرأي قانوناً وقاعدة في ضغط وهندسة وتركيز .



وظيفة الأدب

فصل ملخص من كتابي : « مناقشات في الادب »

يني وبين من يُقدِّرون الأدب ويقرأونه خصوصاً بالغة كتلك
الخصوصية التي بينهم وبين الادب الجيد والفهم الصحيح .
فهم يقيسون الأدب بالمسطرة ويرسمونه بالمدورة ، ويصدرون في تقديم له
وفهمهم عن مذهب البدهيات الرياضية المقررة .

وبهذا يبدو لي في معرض الحديث عن وظيفة الأدب ، انه
لا بد من وقفة ونظرة نضع فيها المقاييس ، ونمسك بالموازين ،
لنتخلص بعد هذا الى نتيجة لا يتسع مجالها لغير غاية من توضيح رأي
او جلاء فكرة .

نضع المقاييس ، ونمسك بالموازين ، ذلك انه من خطئ الرأي ان
"نحكيم الذوق المتغير فيما يحتاج الى الاطمئنان والثبوت ، او بعض
الاطمئنان والثبوت . فان فعلنا لم نأمن اعتساف الحكم ، وفوضى النقد
والادب - كما لكل شيء - قواعد تميز بالخلوص والوضوح .

ولست ازعم اني مقدم جديداً فيما اقول وأرى ، فالكلام في

الشعر مكرورة والحديث عن الأدب معاد ، واكثر من يكتب فيهما يجترأ
 اقول هذا ، وانخي امام اشياخ الأدب ، فقد ملأوا الدنيا بكل جديد
 على ان مقياسي هذا ليس كالمقياس الذي يستعمله المهندس حيث
 للحركة الصغيرة قياس دقيق مضبوط ، ولا ميزاني كذلك الميزان الذي
 وزن به الصيادلة او باعة الذهب ، حيث يكون للذرة ثقل وحساب . لا ،
 است اشتط فأقول : ان مقياسي وميزاني - وكل مقياس وميزان - كهذين
 فأنهما عندي لا يغنيان عن صحة التمييز او قوة الذائقة ، وهي شيء في
 الفطرة ليس بيدي امر خلقها على انك ان تعهدتها ، وانا هنا افترض
 وجودها ، اصلحها المدرس ، وهذبها التحصيل واصبحت من بعد وسيلة
 مشروعة من وسائل المعرفة التي تصح لدى الغير وان كنت لا انكر
 انها ستبقى في النهاية امرأ من الصعب ان نحمل هذا الغير على
 الاحساس بها .

ولكن الذي ازعم اني مقدم شرحاً وتفصيلاً يكون فيهما
 بمجموعهما على قدر الامكان مقياس وميزان قد يصلحان في تجنب الخلط
 بالمقابلة والقياس .

ما وظيفة الأدب ، وما غايته ؟

سؤال لو ألقيته في مجمع ما خرجت منه بأجوبة كثيرة ! فان القيته
 في النخبة المختارة من نقاد الادب ورجاله ، وجدتهما فريقين : فريق
 يمثل جانب مدرسه الفن للفن ، فالأدب عنده غاية في ذاته ، وفريق يمثل
 جانب الفن لخدمة المصلحة والحاجة ، فهو من الفريق الاول في موقف
 النقيض من النقيض لان الادب عنده وسيلة لا اكثر .

وعندي ان الاجابة الاولى اجدر بالاحترام ، واحق بالتقدير ، فانها
 تجريد للادب من قيود الضرورة والحاجة .

وأي لأرى ان اوان التفرقة الحاسمة بين الكتابة والادب قد آن
فالكاتبه هي التي يجب ان تخدم المصلحة وتؤدي الغرض ، فتكون بهذا
لهواضيع المحدودة الموقوتة، ويبقى الادب تعبيراً عن الانفعالات والاحاسيس
العامه في الحياة .

ولا يعني هذا ان الادب لا يحقق في صورته هذه مطلباً ، ولا يؤدي
غرضاً ، فقد يحقق ، وقد يؤدي ، ولكن هذا ليس غايته وممره ، ولا
قيمة له في مسبار النقد ، وميزان الفن ، لان امتياز العمل الادبي منوط
بانفساح الشعور وعمقه ، وقوة التعبير وإيجائه .

وهنا يعترضنا هذا السؤال : او ليس من حق الامة على الاديب
او الشاعر ان يمثل حياتها في الحدود المرسومة ، والشروط المذكورة ؟
اي ان يشعر بهذه الحياة ويردها لنا من نفسه مصهورة متبلورة ؟

فأقول : ليس هذا الفرض أقل خطأ من اشتراط المنفعة والحاجة ،
فالأديب او الشاعر هو الذي يأخذ من الحياة ، ولكننا لا نستطيع ان
نحدد له ما يأخذ ، ولا ان نفرض عليه ما يعطي ، والحرية في الاخذ والعطاء
هي التي تخلق الشاعر الكبير ، والاديب الكبير .

ولقد احب بعد ان اوضح واحدد ، فلست ارمي من دفاعي عن
نظرية الفن للفن ما يرمي اليه معتنقوها ، والقائلون بها ، والقارئون لها
وليس من مفهومها عندي ان الادب غاية لا وسيلة بالمعنى المطلق الشامل
لهذا التعريف . فالأدب وسيلة حقاً ، وسيلة نقل وتأدية شيء اسميه
انفعالاً شعورياً ، وانما قصدت فيما اسلفت قوله من قبل انه ليس لنا
ان نتسائل عن غاية هذا الانفعال وممره ، وعما اذا كان منه نفع ؟
فالانفعال لا يكون الا خالصاً غير مشوب . قيمته محصورة في ذاته .
ومجرد وجوده مبرر كامل لوجوده .

ولعل النظرية تستقيم بعد هذا اذا اضفت : ان فن الادب شيء يستحيل تقويمه اذا نحن حكمنا فيه اموراً خارجة عن طبيعته .

ولست اجد بأساً هنا من المذهب مذهب الاستاذ « لاسل أبركرمي Lasclles Agercrombie » في التسمية والتعريف . فقد قسم الادب في كتاب له « قواعد النقد الادبي » الى نوعين فقال : اننا نستطيع ان نعتبر كتاب اصل الانواع مثلاً لداروين قطعة فنية اذا نظرنا الى مقدرة داروين فيه على التعبير ، بغض النظر عن الغرض الذي يرمي اليه او قبوله على انه قضية مسلم بها ، فان فعلنا هذا اعتبرناه ادباً . اي مجرد التعبير الذي له قيمته الخالصة ، فالادب التطبيقي اذن هو المؤلف الذي نستطيع ان نعتبره ادباً اذا غرضنا النظر عن غرض المؤلف ، فالشيء الذي اراد المؤلف ان يجعله وسيلة لغاية يصبح في نظرنا هو الغاية بعينها » .

ثم ينتقل أبركرمي فيقول : وسنعي بالادب الصرف وحده . اي بالتعبير من حيث هو تعبير له قدره وقيمته .

لسنا إذا مطالبين بالحكم على قطعة ادبية في منفعتها ، ان الفن يجب ان لا يخرج بنا الى غير دائرة الفن .

وتقسم أبركرمي الادب الى تطبيقي ، وصرف . تقسيم حسن مقبول مبدئياً اذ انه يسهل صعب البحث ، ويعبد وعو الطريق ، على ان لي مآخذ كثيرة على اقواله ليس مجالها حديث عاجل ، وقول سريع .

كنت منذ ايام اقلب كتاباً مقروءاً هو دفاع عن الأدب « Defense des Lettres » لجورج ديهاميل « Georges Duhamel » الكاتب الفرنسي المعروف ، ومن عادي في القراءة ان ألحق على الهوامش شرحاً وحاشية وتعليقاً . واذا بي اقف في التقلب عند موضوع في الكتاب

اسماء المؤلف « عن وظيفة الكتّاب الاجتماعية » .

وللتوضيح قبل كل شيء اعلن انه ليس ثمَّ فارق عند ديهاميل بين الأديب والكتّاب فهو يقول : « الوظيفة الاجتماعية من بين الوظائف التي يستطيع الانسان ان يؤديها هي تلك التي تلاقي حاجة من حاجات الهيئة الاجتماعية . ومعظم المواطنين في هيئة اجتماعية عادية تشغلهم مهام عملهم الشخصي واعبائه عن ان يجدوا المقدرة والوقت اللازمين لمعرفة العالم بالمعنى الفلسفي والشعري لهذه الكلمة . وان يعبروا في لغة لينة عن خلاصة ما يكتشفون . وهم يكونون ذلك الى الرجل المختص ، اي الى الكتّاب الذي يناط به في حدود ما يمتنع من ثقافة ان يزاول اعمال المعرفة » .

قرأت هذا البحث لديهاميل ، وكانت لي حواشي وشروح على اقواله وكلها مما يتصل بموضوعنا اليوم فأثرت نقلها .

يقول ديهاميل « فالكتّاب اذاً يؤدي في نظري وظيفة اجتماعية عندما يعيننا على فهم الانسان والعالم فهما اصح ، وعندما يأخذ في نقل المجهول الى المعلوم كما يقول كلوديل » .

وقد علقت على قول ديهاميل هذا بقلت : إنه اي الكتّاب او الاديب كما قد قررنا في مطلع هذه الناحية من الموضوع ، قد يؤدي وظيفة في مفهوم هذه الهيئة الاجتماعية ، ونظرها ومقياسها . ولكنه في مفهوم الفن ، ونظرية الادب يؤدي وظيفة وجوده ، وظيفته عبقريته لا غير . وهو اذ يعطي فانما يعطي لأنه اراد العطاء لا لأن ذلك واجب مفروض ووظيفة مطلوبة .

وفي مكان آخر يقول ديهاميل :

فوظيفة الكتّاب الاجتماعية كما عرفتها لا تترك مجالاً للجدل كبير ،

ولكن الموقف يتغير بالأرب اذا اعطينا لكلمة اجتماعي نبرتها الحديثة،
ولعبارة اجتماعي في اذني المعنى البسيط الذي رأيت لها فيما سبق ، ولكنه
من الواجب ان اضيف اليوم ان كلمة اجتماعي اصبح لها في نفوس كثيرة
معنى سياسي . فالوظيفة الاجتماعية للكاتب يمكن ان تفيد اذن الوظيفة
المحتملة للكاتب في السياسة الاجتماعية . ومن الممكن اذا تمسكنا بدقة
الالفاظ ان نجبض المناقشة ، فالكاتب ليس له ولا يمكن ان تكون له
وظيفة فيما نسميه السياسة الاجتماعية ، ومن المنتظر في هيئة اجتماعية
محكمة البناء ان يوكل الاجتماع والسياسة الى عناية اخصائيين يختارون
في حذر من بين من انضجتهم التجارب . نعم ، انه من الممكن ان يرى
الكاتب ان عليه واجبات في هذا الميدان ، بل ان يقبل بعض الالقاء ولكن
وظيفته ليست في هذا .

جميل ولا شك ان يضع ديهاميل الحد بين العمل السياسي والعمل
الكتابي ، ولقد كان يستقيم في رأيه لو انه فرق بين الاجتماع والكتابة
الأدبية ، اي بين العمل الموقوت ، والعمل الخالد .

على ان ديهاميل حين يقرر ان الاجتماع والسياسة في هيئة اجتماعية
محكمة البناء من عمل اختصاصيين اكفاء ، يتراجع في حذر بالغ .

ثم ... ثم ماذا ؟

ثم ها هو ديهاميل يتراجع نهائياً . انه ينهي فصله بهذا : قال فيني ..
« Alfred de Vigny » - وفيني هذا هو شاعر الفكرة بين الرومانتيكيين
الافرنسيين - أدرسائك حراً . ولست ارى موجباً لتغيير هذه المحكمة
واضاف فيني : « لا قداسة في غير الوحدة » ألا فليهد هذا القول الجميل
من بيننا اولئك الذين لا يقبلون ان يبحروا مغامرين على غير بينة ..

والانصاف اقول : إن ديهاميل مدافع عن الأدب كفاية ، مؤيد لفكرة الحرية الادبية ، والانصاف ايضاً اذكر ان ديهاميل حين قال : فالكتاب اذن يؤدي في نظري وظيفة اجتماعية حين يعيننا على فهم العالم فهما اصح .

حين ذكر هذا ديهاميل كان ينظر للموضوع من ناحيته كفرد في هيئة اجتماعية ، وحينذاك يكون قوله صحيحاً ، غير اني اخذت عليه قوله ، لاني افترضت وجوده وجود الاديب الفنان لا الانسان العادي .

وفي الكتاب بعد هذا كلام كثير من مثل ما قدمت ، وشروح كثيرة من مثل ما اسلفت ، وكلها يتصل بموضوع الأدب .

ولا احب ان اغادر الموضوع قبل ان احصر ما خلص لنا من محض هذا الحديث . فقد علمنا :

- ١ - ان حكم الذائقة الأدبية تفضيل غامض مبهم .
- ٢ - ان النقد اختيار يرجع الى قواعد توضح الغاية وترشد الى الطريق .
- ٣ - لا بد من الذائقة والفهم ليتم الحكم ويكون صحيحاً .
- ٤ - الكتابة هي التي يجب ان تؤدي الحاجة وقد اسميناها كتابة واسماها كرمي . . الأدب التطبيقي .
- ٥ - الأدب الخالص تعبير عن الانفعالات والاحاسيس العامة في الحياة .
- ٦ - التعبير وسيلة توصيل انفعال من نفس الى نفس .
- ٧ - مجرد وجود الانفعال مبرر كامل لوجوده .

٨ - لا بد من الحرية للادب ، الحرية في الاخذ ، والحرية في العطاء .
هذه عجالة آثرت فيها الايجاز ، ولعلي اوضح في كتابي « مناقشات في
الادب » بعض ما غمض مستشهداً ، ممثلاً ، بما يثبت ، ويضع الحسد ، او كما
يقول ديهاميل ، يجبض المناقشة .



سَمِيُّ النَّارِخِ وَنَسِي مِنَ الْحَرِيرِ فِي النِّكَّةِ وَالنَّادَةِ

« حديث اذيع من محطة الاذاعة السورية بدمشق »

في بعض ما قرأت (١) ان يوحنا وهو من حواربي المسيح كان كثيراً ما يتخفف من اثقال التزشن ، وزماتة الوقار ، ليدعب ويمزح ، فلا يجلس مجلساً من صحبه إلا ضحك واضحك .

وان شمعون ، وهو حواربي ايضاً ، كان عبوساً جهماً ، أو هو كما يقول العرب : منضوح الوجه بالخل ، مسعوط الخيشوم بالحدول ، فلا يقعد مقعداً من قومه الا تحزن فأحزن ، وإلا بكى فاستبكى .

قال شمعون يوماً ليوحنا : ما أكثر ما تضحك وتفرح ، وتهش وتبش ، لكأنك قد فرغت من عملك فلا عمل ! .

فقال يوحنا : وانت يا شمعون : ما أكثر ما تعبس وتجهم ، وتبكي وتحزن لكأنك قد يئست من ربك فلا أمل !

فأوحى الله من بعد الى عيسى بن مريم ان احب السيرتين الي

(١) القصة في كتاب « نهاية الارب » . وهي موضوعة . وقد رويتها لدلائها لا لمقيمتها التاريخية .

سيرة يوحنا .

وفي الحديث : روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب
إذا كَلَّتْ غُميت .

لا بأس إذن ، فليكن هذا المقال مزاجاً من الجد والهزل ، من
العقل والعاطفة ، وليكن فيه من التسرية والترويح ما يرضي ، وحسي
الرضى ، فقد طالما رأيت العبرة في غيري ممن استزاد فعاد بالخفين ، وقد
يكونا خفّين حقاً ، لا خفي المثل !

ولكلمة التسرية والترويح عندي معنى عميق ، ونتائج بعيدة ، فهما رصيد
الحياة المذخور ، ومرحها المخزون يستعملن في الكائن الحي .

وبهذا كان للنادرة وهي من دوافع الفرح وبواعث المسرة مقامها
الكبير ، واثرها البالغ في تنشيط الروح وبعث حيويتها الكامنة ، وفرحها
الانساني العميق .

ولقد عرف العرب النادرة في مجالس اللهو واثنية الحديث فعرفوا بها
الحياة حين تشرق وتصفو ، وحين تعطف وتقبل .

قال هشام بن عبد الملك : قد أكلت الحلو والحامض ، حتى ما اجد
لواحد منها طعماً . وشممت الطيب حتى ما اجد له رائحة . واتيت
النساء حتى ما ابالي امرأة اتيت أم حائطاً . فما وجدت ألدّ إلي من
جلس تسقط بيني وبينه مئونة التحفظ .

وقد كثرت عندهم للنادرة الأسماء ، فهي أطروفة واضحوّة
واملوحة . وهي نكتة ونادرة ، وهي دُعاة وهزالة وفكاهة . الى آخر
ما في قواميس اللغة ، غير انني احسب ان في اطلاق هذه الاسماء
وتعميمها جنوحاً وميلاً ، ذلك ان الحدود بينها أصبحت تلتقي في خطوط

كثيرة التعاريف والفجوات فهي لا توضح الا قليلاً .

ولعلي ادنو من التحقيق حين اعمد الى التقسيم والتفصيل فأقول
ان النادرة تنسحب الى ثلاث شعب هي : النكتة ، النادرة ، الدعابة .
واما بقية الأسماء فهي اميل الى مرادفات التوحيد منها الى مرادفات
التنوييع .

النكتة :

والنكتة اقصر عادة ، واكثر حرارة ، واشد اشراقاً ، واعنف
تأثيراً واكثر نبضاً بالحياة بما فيها من عنصر المفاجأة والبدئية
والتركيز والمعان .

هذا اعرابي اشيب اليأس يود شراء جارية هيفاء صبية فيقول لها :
لا يُربك مني شئني فال عندني قوة . فتجيبه الجارية اسرع ما تجيب :
أكان يسرك ان عندك عجوزاً معتسمة .

هذه نكتة ، بل لدعة اجزم ان قد بقي لها في اذن عجوزنا
المتصالي دوي وطنين .

ولقد تجيء النكتة جواباً محكماً ، او تورية مضحكة او لمزة
ساخرة او حيلة ماكرة ، او صورة هازئة ، او غمزة مراشة ، او مغالطة
بارعة ، او مفارقة لاذعة ، او ما هو من ذلك بسبيل ، وهي في كل
اشكالها ان لم يتوفر لها الخالفة والخروج فلن تكون نكتة تؤدي
مؤداها وتحقق موضعها .

والاغلب في النكتة ان تقف عند الحد المادي للحياة ، فمن النادر
ان يستطيع صاحبها الغور بها او التحليق ، واعمق ما في النكتة ان

تجبيء نقداً ساخراً .

هذا اعرابي يتزوج على كبر سنه فيقال له في هذا فيقول : ابادره
بالميم قبل ان يبادرني بالعقوق .

ارأيت . انه يلمس المعنى بسخرية قاسية . ولكنه يوميء ولا يفصح .
وهذا ادق ما وصلت اليه النكتة الفنية في العصر الحديث .

وذاك اعرابي يكتب الى عشيقته : عصمنا الله وإياك بالتقوى .
فتجيبه والغيظ آخذ بكظمها : يا غليظ الطبع ان استجاب الله دعائك
لم فلتق ابدأ .

وذاك آخر يسأل عن جارية له يقال لها زهرة : أيسرك انك
الخليفة وان زهرة ماتت ؟ فيجيب : لا والله تذهب الامة وتضيع الامة .
وهنا تفرد اللغة في تهينة الجو وخلق النكتة ، وهذا النوع محلي
يفقد قيمته بالترجمة والنقل .

وممن شهر في التاريخ العربي بالنكتة ابو العيناء نديم المتوكل
وغیره من خلفاء القرن الثالث للهجرة ، وكان ابو العيناء هذا قبيحاً فكأنما
سواه الله على عجل . خطب امرأة فاستقبحتته ولم تكتم عنه فكتب اليها :

فان تنفري من قبس وجهي فاني اريب اديب لا غمي ولا فدم

فأجابته : ليس لديوان الرسائل اريدك .

ومر ابو العيناء بدار عدوله فسأل : ما خبر ابني محمد . فقالوا :

كما تحب . قال : فما لي لا اسمع الصياح والعويل .

ووقف على ابني العيناء شخص فلما احس به قال : من ؟ قال الرجل :

من بني آدم . قال : مرحباً بك . اطال الله بقاءك . لقد كنت اظن ان

هذا النسل قد انقرض .

النادرة :

قلت فيما اسلفت من الحديث ان عناصر النكتة هي المفاجأة والقصر والبدهية ، والتركيـز واللمعان على ان يتوفر لها الخروج والمخالفة اي الشذوذ والانحراف . ولا يعنى هذا انها عناصر لا تجتمع في النادرة والدعابة فقد يجتمع بعضها ، عسدا القصـر ، إلا ان امتداد النادرة واسلوبها الحكائي ومجرى الحادثة فيها وفتور الدعابة وعدم توفر الاشراق لها يجعل لها جواً آخر فينزلها منزلة اخرى .

ولقد فتحي النادرة بنكتة . مثال ذلك ما روه ان رجلاً احضر امرأته الى قاض من قضاة البصرة يقاضيه وكانت حسنة المتقـب قبيحة المسفر ، ثمـال القاضي على زوجها وقد وقعت من نفسه تحت النقاب موقع ميل فقال : يعمد احدكم الى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسيء اليها . ففطن الرجل الى ميله ولحظه فقال : أصلح الله القاضي قد شككت في انها امرأتي فمرها تسفر عن وجهها . فقال القاضي : اسفري يا حسناء . فسفرت عن وجهه لا تقع العين على اقبح منه فصرخ القاضي وقد تعوذ : قومي عليك اللعنة . كلامٌ مظلومٌ ووجه ظالم.

وهذا عدي بن ارطاة يأتي شريحاً القاضي وامرأة له من اهل الكوفة يخاصها اليه . قال عـدي : أي امرؤ من اهل الشام . قال شريح : بعيد الدار . قال : إني قدمت العراق . قال : خير مقدم ، قال : وتزوجت هذه المرأة . قال : بالرفاء . قال : وقد ولدت لي غلاماً قال : لينك الفارس . قال : وقد اردت ان انقلها الى داري . قال : المرء احق بأهله . قال : كنت شرطت لها دارها . قال : الشرط أملك .

قَالَ : فَأَقْضُ بَيْنَنَا ، قَالَ : قَدْ قَضَيْتَ . قَالَ : فَعَلَى مَنْ ؟ قَالَ شَرِيحٌ وَقَدْ
تَضَيَّقَ : عَلَى ابْنِ أُمِّكَ .

وهذا أشعب يقال له : يا أشعب . قد لقيت رجلاً من أصحاب النبي
فلو حفظت منهم أحاديث تتحدث بها . فقال أشعب : أنا أعلم الناس
بالحديث . قالوا فحدثنا جزاء الله . قال : حدثني عكرمة عن ابن عباس
رضي الله عنهما أن محمداً قال : خلطان لا يجتمعان في مؤمن إلا دخل
الجنة : ثم سكنت أشعب . فقالوا له : وما الخلتان ؟ قال أشعب وقد حك
رأسه : نسي عكرمة أحدهما ونسيت أنا الأخرى .

المرحاة

ولقد يسألك بعد هذا متسائل عن مكان الدعابة فأقول إنه المكان
الثالث والمنزلة الأخيرة . ذلك أنها أقل حرارة ، بل لعلها تبدو في
الكثير منها فاترة ، فلا هي بالباردة فتبوخ ، ولا بالحرارة فتضحك
وتضيء جوانب الحزن .

مثال ذلك :

قيل إن أعرابياً دخل على يزيد بن المهلب وهو على فراشه والناس
من حوله فقال : كيف أصبح الأمير ؟ قال يزيد ، كما تحب يا أبا
العرب ، فقال الأعرابي ، لو كنت كما أحب كنت أنت مكاني وأنا مكانك

قدمت أن العرب عرفوا النكتة والنادرة والدعابة ، وقد كان
العصر العباسي أطبع العصور العربية على مراسها جميعاً وتذليل عصيها
بما أباح له السلطان من اضطراب العبث والوان الحجاة وما دخل في ذلك
على المجالس من لهو وهزل برئى وخليع .

وقد تميز كثيرون في هذه الحلبة وكانوا فرسانها منهم أشعب بن جبير وكنيته أبو العلاء ، وأبو العيلاء ، وقد تقدم ذكرهما . ومنهم إبراهيم ابن سيابة . ومطيع بن إياس الكناني ، والأقيشير ، وأبو الشبل ، وابن الجصاص . وغيرهم كثير .

وقد أجاد هؤلاء واضراهم قص النادرة جوذة معجزة ، وبرعوا رمي النكتة عفو الخاطر ووجي المقام بروعاً يضحك المصلوب ، ولو لا ضيق المجال وسرعة المقال لأوردت نثفاً كثيرة لكل منهم .

على انهم كانوا كثيراً ما يسلطون ويلذعون . ولقد يسفون فينزلون الى المجون والتهجين وقد ينزلون وينزلون حتى تكون النكتة او النادرة او الدعابة سوقية مكشوفة لفظاً وغاية .

وهنا اضرب صفحاً عن الرواية ، فمن رغب في نكتي كتب الأدب القديمة غاصة بها حافلة ، وحسبي من ذلك ان اكون دليلاً .

على ان من نكتهم هذه مما لا يخرج من روايتها ما يرتفع لفظه وان بقي المعنى لمس المجانة .

فهذه جارية تسأل ، أبكر انت ؟ فتجيب ، اعوذ بالله من الكساد . رأيت ، انها مجانة تسوغها الاذن بعض السو غ .

وهذه جارية اخرى يقول لها المتوكل وهو يستعرض الجواري ، أبكر انت ام ايش ، فتقول له ، انا ايش يا امير المؤمنين .

نكتة ثانية مقبولة تسينها العامة ولا يثكر لها الخاصة .

وهذا عاشق عذري يكتب الى حبيبته ، مري خيالك ان يلم بي ، فتجيبه ، ابعث اليّ بدينارين حتى آتيك بنفسي .

وثان يكتب الى حبيبته ، وضعت على الثرى خدي لترضي ، فتعجبه
زن عشرة دراهم وضع خدك على خدي .

وهذا ابو العيناء يقول لابن ثوبة ، بلغني ما خاطبت به ابا الصقر ،
وما منعه من استقصاء الجواب الا انه لم ير عرضاً فيمضغه ولا مجدأ فيهدمه .

فقال ابن ثوبة ، ما انت والكلام يا مكدمي (١) فقال ابو العيناء ،
لا ينكر على ابن ثمانين قد ذهب بصره وجفاه سلطانه ان يعول على اخوانه .
ثم رماه بكلام فاحش ، فقال له ابن ثوبة ، الساعة آمر احد غلماني بك ، فقال
ابو العيناء ، ايها ؟ الذي اذا خلوت ركب ، ام الذي اذا ركبت خلا ؟ .

فانظر ، انها رمية الى هدف . انه افحاش منزله عن صراحة الفحش رماه
به ، ورمى زوجه . الى غير ذلك مما تغص به كتب الأدب القديمة ، وهو كثير
من نكت وطرف واضاحيك ونوادير تستحق بعض العناية فانها ثروة ادبية ،
فضلاً عن انها تشبع الحاجة فترفه عن القلب المأبج ، وتسري عن النفس
المحزونة المكروبة .



(١) من يطلب العيش من الناس .

مأساة اللغة العربية

١

قبل البحث :

هذا الموضوع ايها القارئ عرض لمأساة اللغة العربية كما نعانها اليوم ، وليس حلاً لمشكلتها .

صحيح انني اقترحت بعض الاصلاحات ، وقدمت لغيري اقتراحات اخرى . ولكن المشكلة - في رأيي - لا يحلها اقتراح في ناحية من نواحي الموضوع ، فهي كالعنكبوت منسوج الخيوط في كل زاوية من زوايا البيت العتيق المهجور ، وهي بعد في حاجة الى قلب وتغيير شامل ، ومن الاساس .

ولقد بعثني الى الكتابة فيه اني كنت اقرأ اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي عضو الجمع العلمي ، باستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني مع بعض التعديل (١) وفي نفس اليوم قرأت مقالاً للاستاذ احمد جاد المولى عضو الجمع ايضاً ، في مجلة الجمع (٢) عن اللغة اسميته

(١) الحروف اللاتينية للكتابة العربية

(٢) الجزء الثالث سنة ١٩٣٦ .

لفوري ، لعب اللغة العربية ولاعبوها .

واقترح الاستاذ عبدالعزيز فهمي ومقال الاستاذ جاد المولى يمثلا
عندي الاتجاهين الرئيسيين في المشكلة وهما : انكماش المحافظة ، وانطلاق
الفوضى . وفي هذا الانكماش المحافظ ، وذلك الانطلاق الفوضي تتمثل
مأساة اللغة العربية .

فالاستاذ جاد المولى رجل منكش منزمت لا يبالي ما يسيء الى اللغة
بترمته وانكاشه . والاستاذ عبدالعزيز فهمي رجل منطلق متأثر لا يبالي
ما يجرف في طريق ثورته وانطلاقه من اساس اللغة وجوهرها .

وسنرى في البحث خطورة الاتجاهين ، وبعدهما عن حل المشكلة
حلاً يقره منطق اللغة وفلسفتها .

٢

رجعة الى التاريخ

وسنرجع رجعة الى التاريخ لنتعرف منه قيمة اللغة في الحياة
العربية في مختلف ادوارها ، وهل كانت تعتبر غاية ام وسيلة .

يروى البلاذري وابن قتيبة ان عبد الملك بن مروان كان يحذر
ابناءه من اللحن ، فان اللحن في منطق الشريف اقبح من آثار الجدري
في الوجه ، واقبح من الشق في ثوب نفيس وكان عبد الملك لا يستعمل
صيغاً ملحونة حتى في المزاح وقد تأدب ابنه سليمان اذبه ، وكان كما
يروى ياقوت يحسن الاشارة بقيمة الجمال اللغوي ، وكذلك عمر بن
عبد العزيز فقد كان لا يطيق ان يسمع في محيطه خطأ لغوياً .

واشتهر الحجاج بمثل هذا . ويروى ياقوت ان الحجاج اراد كثير

ابن كثير البصري لعمل من الأعمال ولم يستطع كثير الهرب منه فقد
أصر الحجاج عليه، واخيراً عمداً الى حيلة ما كرهه تخلص بها من الحجاج اذ
لحن لحناً فظلياً امامه في القواعد فأعفاه .

ويروي ايضاً ياقوت والقلمشندي والسيوطي ان كاتب اسحاق بن
ابرهيم المصعبي كتب الى الخليفة المأمون كتاباً فارتكب فيه هذه
الخطيئة : وهذا المال مالاً يجب على فلان . فخط المأمون على كلمة : مالاً
وكتب في حاشية الكتاب : أتكتبني بلحن يا اباسحق . وروي ياقوت عن
اسحاق هذا انه حين كان يشغل منصب الحاكم لمدينة بغداد وقع منه
لحن في حضرة المأمون فاضطر الى دراسة القواعد على هشام
ابن معاوية .

ولم يقتصر الأمر في العناية باللغة هذا الاعتناء الشديد على الحكام
والولاة بل تعداه الى الشعراء والرواة ولم يقتصر ايضاً على العرب
الخلص فقد امتد منهم الى المسلمين غير العرب من الموالي ، فهذا الحسن
البصري (١) كما يروي الجاحظ في بيانه قد بلغ درجة في اللغة حملت
رجلاً ضليعاً كأبي عمرو بن العلاء على وضعه في مرتبة الحجاج .

وهذا الفتح بن خاقان (٢) يبلغ درجة في ثقافته اللغوية تجعله -
الى جانب مؤهلاته - يتمتع بنفوذ كبير فيصبح مستشاراً للمتوكل (٣) .

وتحضرني هنا قصة الاصمعي وبیت ذي الرمة . فقد كان الأصمعي
يُكر ان يقال في لغة العرب مالح ويقول انما هو ملح ، وان مالح هذه
عامية ، فلما استشهد له بعضهم ببیت لذي الرمة قال : « ان ذا الرمة هذا

(١) هو ابن احد اسارى الحرب من مدينة هيران

(٢) احد ابناء الاثراك

(٣) وقد قتل معه عام ٧ : ٣ هـ

قد بات في حوائت البقالين بالبصرة زماناً .

يريد الاصمعي انه اخذها منهم لأن لغتهم عامية غزالة عن سننها
الفصيح مصروفة الى وجهها التجاري والملاح مما يبيعه البقالون بالبصرة .

٣

الجرجاني وابن خلدون

وارى انا اذا عمدنا الى تفصيل امر العناية باللغة في العصور
العربية كلها فسيطول بنا الشرح ويمتد المقال ، ونحن في محالة يحمده
معهما الايجاز ، لذلك أقف عند رجلين اثنين اولهما الجرجاني في كتابة
الوساطة ، وثانيهما ابن خلدون في مقدمته ، وسيعطينا الأول دليلاً
اقوى على قيمة اللغة فهو رجل ناقد . وسينير ثانيهما الموضوع انارة
اوضح لأنه يفرد اللغة فصلاً خاصاً .

في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه يعقد الجرجاني فصلاً بعنوان
اغليط الشعراء . يقول الجرجاني : ودونك هذه الدواوين الجاهلية
والاسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت او اكثر لا يمكن
لكاتب القدح فيه . اما في لفظه ونظمه او ترتيبه وتقسيمه او معناه او
اعرابه ... » ثم يستشهد الجرجاني بقول امرئ القيس :

أيا راكباً بلغ اخواننا من كان من كندة او وائل
فنصب بلغ . وقوله :

فاليوم اشرب غير مستحطب اثماً من الله ولا واغل

فسكن اشرب . وقول الأسدي :

كنا نرقعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع

فُسكن رُقْعَها ...

وعاد الجرجاني الى الاغاليط في المعاني فقال: كقول امرئ القيس :

واركب في الروع خيفانة كسا وجهها شعر منتشر

وهذا عيب في الخيل . وقول زهير

يخرجن من شربات ماؤها طحل على الجذوع يخفن الغم والغرقا

والضفادع لا تخاف شيئاً من ذلك

وقول سلمة بن الخرشب ،

اذا كان الحزام لقصصريها اماماً حيث يمسك البؤيم

يقول : ان الحزام يقرب في جولانه اذا اكثر من عدوه فيصير

امام القصريين . قال الأصمعي : اخطأ في الوصف ، لأن خير جري

الاناث الخضوع ، وانما يختار الاشراف في جري الذكور ، فاذا اختضعت

تقدم الحزام كما قال بشر بن ابي خازم :

نسوف للحيزام بمرفقيها يسد خواء طبييتيها الغبار

2

اما ابن خلدون فانه يعالج موضوع اللغة من وجه آخر فيلججه من

غير باب النقد ، فهو يفرد فصلاً خاصاً كما ذكرنا للتحدث عن اللغة بعنوان :
اللغة ملكة صناعية .

بقول ابن خلدون ،

اعلم ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في

اللسان العبارة عن المعاني وجودتها ، وقصورها ، بحسب تمام الملكة او نقصانها ، وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التركيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة .

هنا يعتبر ابن خلدون اللغة في تعريفه لها وسيلة للتعبير . ولكنه سرعان ما يقع ويعتبرها غاية ، لأن مفهوم اللغة لم يكن واضحاً عنده ، فهو وسيلة ام غاية . فهو يقول في مكان آخر ،

« اعلم ان صناعة الكلام نظماً وشرأ انما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وانما المعاني تتبع لها ، وهي اصل » .

ثم يتابع ابن خلدون كلامه ، فيقول ، « وتأليف الكلام للعبارة هو المحتاج للصناعة كما قلناه ، وهو بمثابة القوالب للمعاني » .

وقول ابن خلدون ، القوالب المعاني اعتبار واضح للغة وسيلة لا غاية .

ثم يأخذ ابن خلدون من جديد في التعثر ، والمغالطة ، مثبتاً غاية اللغة فيقول : فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء .

والمغالطة هنا ان ابن خلدون يعتبر المعاني واحدة كالماء ، واللغة المعبرة كالأواني المختلفة من ذهب وفضة وصدف وزجاج وخزف ، فاللغة اذن هي الأساس ، اي الغاية .

قدمت هذه الرّجعة الحافظة الى التاريخ ، وشيئاً عن اللّغة والنقد عند الجرجاني ، واللغة ملكة صناعية عند ابن خلدون لاّخلص الى الحقيقة التاريخية للغة العربية وهي انها كانت تعتبر - منذ ان قرر الاسلام مصيرها حتى انحطاط الدولة العربية على يد الاتراك - غاية لا وسيلة . ولهذه الحقيقة التاريخية قيمة كبيرة في نظري فهي تفسر معجب بقاء اللغة العربية الفصحى اليوم على ما كانت عليه دون اي تطور يذكر . وهي تفسر ايضاً السبب في عدم الجرأة على تطويرها ، لان تلك العناية التي لاقتها في تاريخها الطويل ، واعتبارها غاية ، زد على ذلك انها لغة القرآن وقريش ، احاطها بنوع من التقديس والوثنية اصبح من المتعذر معه ان يجزؤ انسان على اختراق حرّما .

على اننا ثبتت حقيقة اخرى الى جانب هذه الحقيقة التاريخية ، وهي ان اللغة العربية مدينة ببقائها لها ، اي ان اعتبارها غاية والتقديس الوثني الذي احيطت به هو الذي حفظها من الانقراض منذ انحطاط الدولة العربية حتى اليوم .

اللغة وسيلة ، غايتها

اثبتنا ان اللغة العربية كانت تعتبر في كل ادوارها غاية . او ان الاعتناء الشديد بها ، وتقديسها قد وضعها هذا الموضع واحلها هذا المكان فهل اللغة في حقيقتها غاية ام وسيلة ؟ وما قيمتها ؟ وما غايتها ؟

اللغة وسيلة تفكير وتعبير وسلوك . فنحن نفكر باللغة وننحن نعبّر في حدودها ، ثم نحن نعمل ونتحرك ونعيش بها . فهي التي تعين لنا سلوكنا لأننا نفعل ونفكر بكلماتها .

وقيمة اللغة أنها حددت الحياة . واوجدت التاريخ والجغرافيا ،
ونقلت لنا اختبارات غيرنا في القديم والحاضر ، وجعلتنا نفتفع بها فزادت
في امكانية التطور ودفعت بعجلته الى الامام دفعات .
واللغة ثمرة من ثمرات المجتمع تتطور بتطوره . والمجتمع ثمرة من
ثمراتها يتطور بتطورها . فهي فاعلة منفعة .

هي منفعة لأنها كاية وسيلة اخرى من وسائل الحياة تخضعها -
اي الحياة - لقانون التطور . والكلمة التي تعيش اليوم قد لا تعيش غداً
والكلمة التي عاشت امس قد لا تعيش اليوم . فكلمة الخنثليل مثلاً لم
يعد يستعملها انسان ، وكذلك العسلوج وطلطل (١) وغيرها كثير .
الحياة اذن تلقي رداءها على الكلمات كما تلقيه على الانسان ، وتخلعه
عنها كما تخلعه .

واللغة فاعلة ، لأن المجتمع يتسلط على الفرد منذ ان يولد باللغة ،
ولما كان السلوك هو البيئة ، وكان التعبير عن السلوك تعبيراً عن البيئة
فالانسان - وهو ابن بيئته - ابن لغة تلك البيئة .

ولاشك ان للكلمات احياء وتوجيهاً . فايحاء كلمات : احسان ، نبل
خير ، كرم ، مروءة ، خلق ... غير احياء كلمات : دم ، ثأر ، بخل ،
انتهاز ... وتوجيهها غير توجيهها ، والايحاء والتوجيه ينتهيان الى فرض
مقاييس وقيم ومفاهيم اجتماعية وخلقية وروحية معينة . . اي الى فرض
سلوك معين . ولذلك فحين تعيش لغة امة في ماضيها لا حاضرها تعيش
الامة نفسها في ماضيها بمقاييسه ومفاهيمه وقيمه ، وتنقطع عن حاضر
الحياة وواقعها فتقطع الصلة بينها وبين الحياة . وهذا جانب من جوانب
المأساة والمشكلة .

(١) الخنثليل : السيف ، العسلوج : العصا ، طاطل : هرك .

مأساة العربية ، مشاكلها

على ان مأساة اللغة العربية تنحصر في مظهرين رئيسيين تتفرع
عنهما جزئيات لا سبيل الى حصرها ، واول هذين المظهرين ، الاتجاهان
الذان اسلفنا الحديث عنهما وهما : انكماش المحافظة ، وانطلاق القوضى ،
فالاول يحجّر اللغة ، والثاني ينسفها .

وثانيهما : اننا مازلنا نعتبر اللغة غاية لا وسيلة .

واقعد عانت اللغة من بقاء هذا الاعتبار لها ، كثيراً ، فقد بقيت
حبيسة قفص الحياة العربية الاولى ولم تستطع الخروج الى النور ،
فبقي - بهذا - الجيل العربي كله حبيس هذا القفص ولم يستطع تمثل الحياة
في القرون العشرين تمثلاً كاملاً ، لأن لغته القديمة وما تفرضه عليه ، وما
توحيه له ، وما توجهه اليه ، تحول بينه وبين الانطلاق .

وسنحاول الآن ان ندرس بعض مشاكل العربية على سبيل المثال
لا الحصر ، وعلى ضوء مفهوم اللغة وحقيقتها ، وسنحاول تمثيل المأساة
خلال هذه الدراسة وبعدها .

مشكلة الخط

ومن اولى المشاكل التي تعترض قارئ العربية ، الخط . لأن
اشكال الحروف عندنا واطواها المختلفة تخلق الكثير من الالتباس .
فلدينا مثلاً تسع مجموعات من الحروف تؤلف عشرين حرفاً من حروف
اللغة العربية لا يفرق بين حروف المجموعة الواحدة سوى النقطة .
وهي : ب ت ث . ج ح خ . د ذ . ز ه س ش . ص ض . ط ظ . ع غ .

ف. ق. و لدينا حروف تتشابه حين تكون وسط الكلمة : ب. ت. ث. ن. ي. فهي جميعاً تصبح نتوءاً واحداً يميز الحرف فيه عن الحرف النقطه فقط : ث . ن . ي .

والنقطه هذه طرفه لا أجد بأساً من روايتها هنا ، فقد روي ان اخذ السلاطين أرسل لعامل من عماله على الأقاليم ان أرسل الف دبوس (١) فزرت ذبابة نقطه الى جانب نقطه الباء ! . وأرسل العامل - تنفيذاً لأمر الذبابة - الف رجل انتقام من أوباش الناس وحثاتهم ، فثار السلطان ، ثم أمر ببناء مدينة لهم يحشرون فيها مع عامله ، ويتناسلون .

ويخيل اليّ ان واضع الطرفه اراد ان يشير من طرف خفي الى هذه المشكله ، اي مشكله الخط العربي وما يمكن ان يحصل فيه من التباس .

وتمّ اشكال آخر في الخط العربي هي الحركات والضوابط . فما لم تكن قد قضيت عمرك في دراسة النحو والصرف ، وما لم تكن قد فتحت باب اسرارها المقدس ، وعلمت ما قاله القلقشندي وابن مالك ، والأصمعي ، وسيبويه ، والكسائي ، والفراهيدي وغيرهم ، فلن تستطيع القراءة الصحيحه التامه .

وقد قام البعض بمحاولات لاصلاح الخط فقدم الى مجمع فؤاد للغه العربيه بالقاهرة اقتراحات كثيره (٢) رفضتها اللجنة جميعاً .

ثم وضع الأستاذ علي الجارم اقتراحاً بمشروع يقوم على أساس

(١) دبوس : آلة من آلات الحرب القديمه

(٢) انظر بعضها في صفحة الرسوم الخاصه رقم : ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ .

استبقاء رسم الكلمات العربية كما هو بحروفه المعروفة ، على ان تكمل الحروف ذاتها في الكلمة التي هي منها بزوائد تدل على الكسر والضم والسكون والتوين البسيط . وان يلصق بالشدة المنونة حركاتها الثلاث على ان يعتبر كل حرف لا تزداد فيه علامة مفتوحاً . وفي مشروع الاستاذ الجارم استثناءات لبعض الأحوال (١) وقد ارفق الاستاذ الجارم مشروعه بتقرير يقول فيه :

« فان قالوا ان الشكل يسد هذه الحاجة ويذلل تلك الصعوبة ، قلنا ان الشكل لا يتخذ من الخطأ بل انه قد يكون مدعاة للخطأ ، وكيف تستطيع العين ان تدرك الحروف وما تحتها وما فوقها في آن واحد مع الضبط والدقة ثم تنقله الى اعصاب المخ فتنتقله هذه الى اعصاب اللسان سليماً صحيحاً ؟ . لقد جربنا في مدارسنا ان التلاميذ يخطئون في قراءة المشكول خطأهم في قراءة غير المشكول . جربنا ان الطالب المثقف لا يستطيع قراءة القرآن الكريم وهو مشكول على ادق ما يكون الشكل واحكم ما يكون الضبط . ثم ان الشكل كثيراً ما ينقل عن مواضعه عند الطبع ، فتنتقل حركة المفتوح الى المضموم ، وتنقل الحركة من حرف يجب شكله الى حرف لا يتطلب لضبطه شكلاً . واخرى ان الشكل عمل شاق جداً في الطباعة يحتاج الى دقة والى زمن والى اجر مضاعف ، لذلك قل من الكتب المشكول ورأى اصحاب الصحف والمجلات ان الشكل صعوبة مادية لا تدل . »

مشكلة الطباعة

وتتفرع عن مشكلة الخط العربي مشكلة اخرى رئيسية ، وهي

(١) الصفحة نفسها رقم ٦١ .

في نظري الوحيدة الجديرة بالدرس ومحاولة إيجاد حل لها . هذه المشكلة هي مشكلة الطباعة . فالحرف عندنا يختلف بحسب موقعه . فهو في اول الكلمة غيره في وسطها ، وغيره في آخرها . وبحسبي ان اقدم قائمة بأقل الحروف التي يتوجب استعمالها - دون الشكل - في المطبعة ليعرف القارئ ضخامة المشكلة :

ط .	ط .	ط .	ظ .	ا .	ا .
ظ .	ظ .	ظ .	ظ .	ب .	ب .
ع .	ع .	ع .	ع .	ت .	ت .
غ .	غ .	غ .	غ .	ث .	ث .
ف .	ف .	ف .	ف .	ج .	ج .
ق .	ق .	ق .	ق .	ح .	ح .
ك .	ك .	ك .	ك .	خ .	خ .
ل .	ل .	ل .	ل .	د .	د .
م .	م .	م .	م .	ذ .	ذ .
ن .	ن .	ن .	ن .	ر .	ر .
ه .	ه .	ه .	ه .	ز .	ز .
و .	و .	و .	و .	س .	س .
لا .	لا .	لا .	لا .	ش .	ش .
ي .	ي .	ي .	ي .	ص .	ص .
				ض .	ض .

فاذا أضفنا الى هذه القائمة الحروف المشكلة وعلمنا ان كل حرف يحتاج الى عشرة اشكال جديدة للكسرة والضمة والفتحة والسكون ، ثم للكسرة مع الشدة ، والفتحة مع الشدة ، والضمة مع الشدة ، ثم لها

جميعاً مع التتوين : ب . ب . ب . ب . عرفنا الى ابي رقم يرتفع عدد حروف المطبعة العربية التي يتوجب استعمالها لتخرج كتاباً او صحيفة لا يخطئ قارئها .

ومن تعدد الحروف تأتي صعوبة الطباعة ، وغلاؤها ، ويتأثر بالتالي انتشار المطبوعات ، ابي الثقافة ، الانتشار الكافي بين كل طبقات الشعب .

وقد وضع الاستاذ نصري خطار بلبنان ، حروفاً ابجدية للطباعة لا تتجاوز الـ ٣٢ حرفاً ارى انها ان لم تصلح لحل المشكلة حلاً نهائياً فقد فتحت باب الحل على مصراعيه (١) .

م شروع عبد العزيز فراهي

قدمت في مطلع البحث أن ما اثارني الى كتابة هذا الموضوع اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي ، ومقال الاستاذ جاد المولى . وذكرت ان اقتراح الاستاذ فهمي يمثل عندي انطلاقة القوضى .

ويقع الاقتراح في خمسين صفحة ، سأول تلخيصه للقارئ موجزاً ما استطعت .

بعد أن قدم لاقتراحه انتقل الى الموضوع فذكر كيف ان الرسم اهم اسباب مرض العربية وقال انه رسم لا يقيس معه قراءتها قراءة مسترسلة مضبوطة حتى لخير المتعلمين وذلك لخلوه من حروف الحركات . وقد عالج اسلافنا الاستعاضة عن حروف الحركات بالشكلات للفتح والضم والكسر والسكون والمد والشد والتتوين . ولكن ظهر

(١) انظر الرسم رقم : ٨ .

في العمل ان هذه الوسيلة لا فائدة فيها ، بل هي مجلبة لكثير من الأضرار ، لأن الشكلة المنفصلة عن الحرف كثيراً ما تقع على حرف قبله او بعده »

« وانت عليم بأن عدم وجود علامات الحركات ولا حروف الحركات يجعل الكلمة مركبة من حروف اصوات جوهرية لا تعرف حركاتها بادىء الرأي فيصحفها القارىء غيرالمتمرن على جميع اوضاع الحركات التي تحتملها الحروف . اما المتمرن فانه يعرض نفسه لحول عينيه اذ هو لا يقع بصره على الكلمة الا ويحمله فيما بعدها من الكلمات حتى يعرف معنى تلك الكلمة أهى اسم او فعل او حرف وما وظيفتها في الجملة وما تستحقه من البناء او حركات الاعراب ، وهذه المشقة تحملني على الاعتقاد بان اللغة العربية من اسباب تأخر الشرقيين ، لأن قواعدها عسيرة ورسمها مضلل ، فمن تحدث في نفسه فكرة مفيدة للناس ويجب نشرها فيهم بالكتابة او الخطاب يأخذ خوف انتقاد عبارته فيكتم فكرته في نفسه ويميتها او هو ينشرها بلغة من اللغات الأجنبية التي اصبحت عند كثير من الشرقيين أيسر عليهم من لغتهم العربية . »

ويضرب بعد ذلك الاستاذ عبدالعزيز فهمي الامثال فيذكر كلمة قد . ويقول : انها تصور لك حرف التحقيق وتصور لك قامة الانسان « قد » . وتصور لك فعلاً ماضياً « قد » بمعنى قطع . وماضياً مبنياً المجهول « قد » أي قطع ، وفعل امر بمعنى اقطع « قد » . وهي صيغة مشتركة في النطق مع المبني المجهول وفعل أمر آخر « قد » ولا ادري كم مدلولاً آخر تصوره او لا تصوره (١) .

ويقول بعد ذلك : إذن فأول واجب على اهل اللغة العربية هو

(١) يعتبر ذلك الدكتور علي عبدالواحد وافي الأستاذ بكلية الآداب في كتابه فقه اللغة من ميزات العربية وامتيازها .

ان يبحثوا عن الطريقة التي تيسر لهم كتابة هذه اللغة على وجه لا
تحتمل فيه الكلمة الا صورة واحدة من صور الاداء ، ولقد علمت ان
تشكيل الضمائر ضار ، فلا بد من التفكير في طريقة اخرى تؤدي
المراد .

خطر بفكر احد زملائنا ان يعالج المسألة لا من جهة الرسم ،
بل من جهة الاعراب وذلك بحذف حركاته وتسكين اواخر الكلمات
وكان من السهل اجابته الى فكرته لأن موضوعها ليس غريباً عن اهل
العربية ، بل هو يوافق بعض لطجاتها القديمة وقد قرئت آية : ويضيق
صدري ولا ينطق لساني . مثلاً من القرآن الشريف هكذا : ويضيق
صدري ولا ينطق لساني . بتسكين القاف في الكلمتين .

غير ان الذي يمنع قبول هذه الفكرة انها اذا تحققت عملاً
اختلفت اخلاقاً كلياً بكل ما وصل اليها من شعر الجاهليين وشعر المسلمين
وغير المسلمين الى اليوم . »

ومن جهة اخرى فان هذا العلاج اذا كان يزيل صعوبة الاعراب
فانه لا يفيد شيئاً في الصعوبة الآتية من تغيير الصيغ والصور الكلمة
الواحدة فقد رأيت ان لفظ « قد » له صور مختلفة ومهما سكنت آخره
فلا يفيدك ذلك شيئاً في بيان تلك الصور المختلفة وفهم مدلولها . »

ثم يقول الاستاذ فهمي : لقد فكرت في هذا الموضوع من زمن
طويل فلم يهتديني التفكير إلا الى طريقة واحدة هي اتخاذ الحروف
اللاتينية وما فيها من حروف الحركات بدل حروف العربية ، كما فعلت
تركياً .

الافتراء :

ان في اللغة العربية ثلاث عشرة نغمة صوت جوهرية (١) كلها خاصة بها الا ما ندر . وكل منها يؤديه حرف هجائي مفرد ولا تؤدي حروف الهجاء اللاتينية المفردة شيئاً منها ، وهي نغمتان : الهمزة ، الثاء الجيم ، الحاء ، الخاء ، الذال ، الصاد ، الضاد ، الطاء ، الظاء ، العين ، الغين ، القاف .

اما حرف الهمزة فانه انما ينطق به عرضاً في اللغات اللاتينية الحروف . في اول كل كلمة مبدوءة بحرف من حروف الحركة . وهو عرض ملازم ، لأن حرف الحركة انما يشخص نبرة هوائية مطلقة خالية عن التركيز والانضباط فهي من قبيل النفس الخارج من الرئتين لا تكيفه الأحبال الصوتية ولا اعضاء الفم والحلق التي تضبط مخارج النغمت الصوتية الجوهرية وتميز انواعها . ولذلك لا تجد عندهم حرفاً خاصاً يشخص هذه الهمزة العرضية . على انه لا يهمننا ان تكون الهمزة عندهم عرضاً ملازماً ... لكن الهمزة في العربية حرف جوهري أصيل تجب مبدئياً كتابته برسمه الخاص ، سواء اكان ملفوظاً به في اول الكلمة ام كان ملفوظاً به في وسطها او في آخرها . وفي اللغة الانكليزية نغمتا الثاء والذال ولكن الانكليز يؤدونهما بمركب مزجي مدغم مكون من حرفي « Th » وفي الألمانية نغمة الخاء ولكن الألمان يدلون عليها بمركب مزجي مدغم مكون من حرفي « ch » وفي كل اللغات اللاتينية الحروف توجد نغمة الشين ولكن ليس هناك حرف مفرد يدل عليها . والذي عن لي بعد طول التفكير ان الهمزة والجيم والحاء والهاء والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين هذه الأحرف

(١) انظر الرسم رقم : ٩

العشرة يجب ان تؤدي بذات رسمها العربي .

ومن المصادفات ان هذا الرسم يمتشى مع الحروف اللاتينية ويتسق معها كل الاتساق (١) وارى ان يستعمل حرف « K » عندنا للدلالة على الكاف وان يستعمل حرف « q » منفرداً - وهو لا يستعمل في كل اللغات الا مصحوباً بحرف « u » - للدلالة على القاف .

واستلفت النظر الى ان نغمة حرف الجيم عندنا معطشة في الفصحى وهي نغمة قد يقرب من تأديتها من بين الأحرف اللاتينية حرف « j » عند الفرنسيين والانكليز دائماً كما يؤديها حرف « g » في بعض الصور وفي صورة اخرى لا يؤدي حرف « g » الا نغمة صامتة كنغمة القاف - التي يقلبها المصريون جيماً صامتة - فمن الخير استبعاد هذين الحرفين معاً .

أولاً - لأن نغمة الجيم عندنا هي في الحقيقة نغمة « dj » وثانياً - لأن حرف « g » رأسه وجزء من ساقه تشبه بحرف « q » الذي اخترناه للقاف فاستبعاده يقي من اللبس .

واما حرف الواو فقد اخترت له حرف « W » ويكون ترتيب احرف الهجاء على ما هي عليه عندنا الآن تماماً وبأسمائها العربية من الالف الى الياء مع ملاحظة ان الالف هو صوت مد ، اي حرف حركة مستطيلة النبرة تنتهي نبرته بالسكون ، ولهذا يجب ان توضع علامة مميزة - كما في الرسم - .

بعد هذه التسعة والعشرين حرفاً العربية الاساسية توضع للحركة حروف ثلاثة من بين حروف الحركة اللاتينية هي : « a » خالية من الشرطة للفتحة و « e » للضمة و « u » أو « i » للكسرة .

(١) انظر الرسم رقم : ٩

هذا موجز دقيق لاقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي لخصته للقارىء
تلخيصاً وافياً ليرى ما يفسف الاستاذ - كما اسلفت - في طريق ثورته
وانطلاقه من أساس اللغة وجوهرها .

فالاقترح يخلق مشكلتين رئيسيتين أولاها : التراث العربي ماذا
نفعل به ؟ وقد حلها الاستاذ ببضع ملايين من الجنيهات ينقل به هذا
التراث . وثانيتهما وهي المشكلة الكبرى التي استعصت على حلول الاستاذ
فلم يتعرض لها وهي ان الحروف اللاتينية تحل مشكلة لتخلق مشكلة .
تحل مشكلة القراءة وتخلق مشكلة الكتابة . فالحركات والضوابط
تحولت في الاقتراح الى حروف في الكلمة ذاتها . وهذا يعنى انه يجب
على كل من اراد الكتابة ان يتقن اللغة نحواً وصرفاً ويصبح مشابهاً
للاصمعي وسيبويه فيها حتى يستطيع ضبط الكتابة . وهي مشكلة
تعدم بالنسبة للحروف العربية في رسمها الحالي لأنها تخلو من حروف
الحركات . وتخلو من الشكل .

وهكذا فان اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي لا يحل المشكلة كلاً
ولا جزءاً ، وانما يحمل من « تحدث في نفسه فكرة مفيدة للناس ويجب
نشرها فيهم بالكتابة او الخطابة على ان يأخذه خوف الانتقاد - لأنه لن
يكون آمناً من الخطأ - فيكتم فكرته في نفسه ويميتها أو هو ينشرها
بلغة من اللغات الأجنبية التي اصبحت عند كثير من الشرقيين أيسر
عليهم من لغتهم العربية (١) » .

٧

مشكلة الكتابة والقراءة

إذن ، فما الحل ؟ ما الحل الذي ينهي المشكلة اذا كان اقتراح

(١) من قول الاستاذ في اقتراحه

الاستاذ عبدالعزيز فهمي لا ينهها ؟ .

اما انا فأعتقد ان رسم الكتابة العربية رغم المآخذ عليه لا يحل المشكلة ولا يحمل مفتاح حلها ، لأن المشكلة تتركز في قواعد اللغة نحواً وصرفاً ، والاستاذ عبدالعزيز فهمي نفسه يعترف بذلك لانه يقرر ان القارئ غير المتمرن يضطر الى تصحيف الكلمة على جميع اوضاع الحركات التي تحتملها الحروف . فالمشكلة اذن في الحركات والضوابط اي في النحو والصرف . وليس الخط سوى الشكل المادي لها . لذلك ارى ان ما نحتاج اليه هو تبسيط قواعد اللغة ، وردها الى السليقة العربية الاولى — الخالية من التعقيد — واستخلاص تلك القواعد البسيطة التي كانت تضبط لسان العربي ، فتجعله يرفع الكلمة او ينصبها او يضمها ...

وانا حين اقرر ان مشكله اللغة ليست في رسم كتابتها وانما في قواعدها لا انفرد بالرأي وحسي - دليلاً - هذه الفقرة من تقرير الاستاذ علي الجارم الى المجمع ، يقول : وبقي علينا ان نقصد قراء العربية من اللحن الشائن والخطأ المريب ، وان نجعل لغتنا الشريفة في صف مع جميع اللغات الحية التي لا تحتاج في قراءتها صحيحة الا ان تترجم الاصوات عن رسوم الحروف .

« وفي الحق ان القراءة اصبحت عندنا عملاً علمياً دقيقاً كثير التعقيد والتركيب ، وصارت فناً من الفنون او عبثاً من الاعباء ، وان شئت ان تقول انها اصبحت لغزاً من الالغاز فقل ؛ انك لا تستطيع قراءة العربية على وجهها الصحيح إلا اذا كنت لغوياً صرفياً نحوياً معاً ، فان لم تكن كل هؤلاء جميعاً عجّزت عن ان تكون قارئاً او شبه قارئ ... »

ولتقرير الاستاذ الجارم ورأيه عندي قيمة خاصة لانه في عداد

القلائل الذين ذلوا عصي اللغة فهو عالم ثبت فيها ، وهو بعد ذلك ،
يمثل الجانب المحافظ المنزمت .

ولا أريد ان امر بمشكلة القراءة والكتابة دون ان اعرض لبعض
مشاكل النحو والصرف على سبيل المثال ، لا الحصر .

١ - في اللغة العربية ٨٠ ألف اصل - عدا مشتقاتها - لا تُعرف
حركات حروفها بذات رسمها ، وليس لها قاعدة او قواعد لمعرفة .

٢ - هنالك ٤٤ وزناً للافعال ما بين ثلاثي مجرد ورباعي مجرد وثلاثي
مزيد بحرف او بحرفين او بثلاثة ، ورباعي مزيد بحرف او بحرفين ،
ولكن هذه الاوزان لا تعطي قاعدة عامة لضبط حركات الافعال ، فانت
مضطر لمعرفة ذلك الى الرجوع للقاموس بالنسبة لكل فعل .

مثلاً : نصر فعل ثلاثي مجرد . وانت تعلم ان الثلاثي المجرد يأتي على
سنة اوزان هي : فَعَلَ يَفْعُل . فَعَلَ يَفْعِل . فَعَلَ يَفْعَل . فَعُلَ يَفْعُل .
فَعِلَ يَفْعِل . فمن اي هذه الاوزان فعل نصر ؟ لا تدلك القاعدة . وانما
عليك ان تضبط حركاته من المعجم .

ثم تقول لك كتب النحو بعد هذا ، زيادة في الاربك والتعقيد
وجعل اللغة سحراً من السحر ، انه لا يلزم في كل مجرد ان يستعمل له
مزيد ، ولا في كل مزيد ان يكون له مجرد . ولا فيما استعمل فيه بعض
المزيدات ان يستعمل فيه البعض الآخر . بل المدار في كل ذلك على السماع
يستثنى من ذلك الثلاثي اللازم فتطرد زيادة الهمزة في اوله للتعدية .

وهكذا فانت بعد دراسة طويلة مملة لا تستطيع الخروج بمعرفة
عامة محددة لأفعال اللغة العربية ، ولا بد لك من المعجم لتعرف كل فعل
وكل كلمة ، ثم يسمح لك بعد ذلك ان تزاوّل اعمال المعرفة والكتابة .

٣- الشواذ، وما أكثرها، ومرد ذلك الى ان اللغة العربية ليست لغة قوم بعينهم وانما هي مجموع لهجات القبائل، وقد جمعها النحاة في غير ترتيب ولا تهذيب، فكانت لنا الثروة الوافرة منها. فمثلاً: تقول القاعدة ان اسماء الآلة تأتي على وزن مِفْعَلَة او مِفْعَال او مِفْعَل. ك: مكينة ومفتاح ومبرد، وقد شذَّ عنها - سماعاً - المُسْعَط. والمُدْهِن، والمُنْخُل، والمُدَقُّ، والمُكْحَلَة. فضم الميم والعين فيها جميعاً.

٤- وهناك الحروف التي يجوز فيها لغة حركة او حركتان او ثلاث ك: لَص. لَص. لَص. لَص.

٥ الفروقات الدقيقة، التي يتوقف امامها علماء النحو حيارى - بين المفعول المطلق والتمييز والمفعول لأجله والحال. - وقد بحث فيها ابن هشام في « مغني اللبيب » بحثاً اميل الى المنطق منه الى قواعد النحو - (١).

٦- المنوعات من الصرف. لم جرها بالفتحة؟ ولماذا لا يعمل حرف الجر مطلقاً، دون استثناء المبني من الظروف.

٧- التذكير والتأنيث في ألفاظ العدد وجعل ألفاظه من الثلاثة الى التسعة على عكس المعدود في التأنيث والتذكير...

هذه نواح من النحو والصرف في اللغة العربية جديرة بالنظر فيها، وقد ذكرتها كما اسلفت على سبيل المثال لا الحصر.

لعب اللغة ورعبوها

ذكرت في مطلع البحث ان ما دفعني الى الكتابة فيه اقتراح

(١) هنالك نظرة الى النحو العربي تقول بانه منطق كله.

صفحة الرسوم الخاصة

ا	ب	ث	ج	ح	د	هـ	و	ز	ح
ا	ب	ث	ج	ح	د	هـ	و	ز	ح
ر	ز	س	ص	ض	ط	ظ	ع	ف	غ
ر	ز	س	ص	ض	ط	ظ	ع	ف	غ
ر	ز	س	ص	ض	ط	ظ	ع	ف	غ
ر	ز	س	ص	ض	ط	ظ	ع	ف	غ
ر	ز	س	ص	ض	ط	ظ	ع	ف	غ
ر	ز	س	ص	ض	ط	ظ	ع	ف	غ
ر	ز	س	ص	ض	ط	ظ	ع	ف	غ
ر	ز	س	ص	ض	ط	ظ	ع	ف	غ

١ - اقتراح الاستاذ يوسف الخطام - انظر رقم « ٣ » ايضاً

الحبيب بتهاد الملحن ينادى بنائى
الحُبُّ هُنا لِمَعْنَى يُؤَدِّى بنا الى

الصلدا قتل الرُجتماً عييتن
الصَّدَاقَةُ ابوجمالية

٢ - نموذج من اقتراح الاستاذ عبدالمنعم شرارة

صفحة الرسوم الخاصة

٣ - هكذا نكتب كلمة العقل في اقتراح

الاستاذ يوسف الخطاب



إلهي - أنا ما ننو - ساييدو

إبري أنت سيد

٤ - نموذج من اقتراح الاستاذ ابراهيم فهم

حصص - يحصص - تحصين

حصن حصن تحصين

٥ - نموذج من اقتراح الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي

خير البر ما تعهد به المرء ونفسه ، وخير بر النفس أن ترأ بها
بها عن مراقف الاعلئدار

٦ - نموذج من اقتراح الاستاذ علي الجارم :

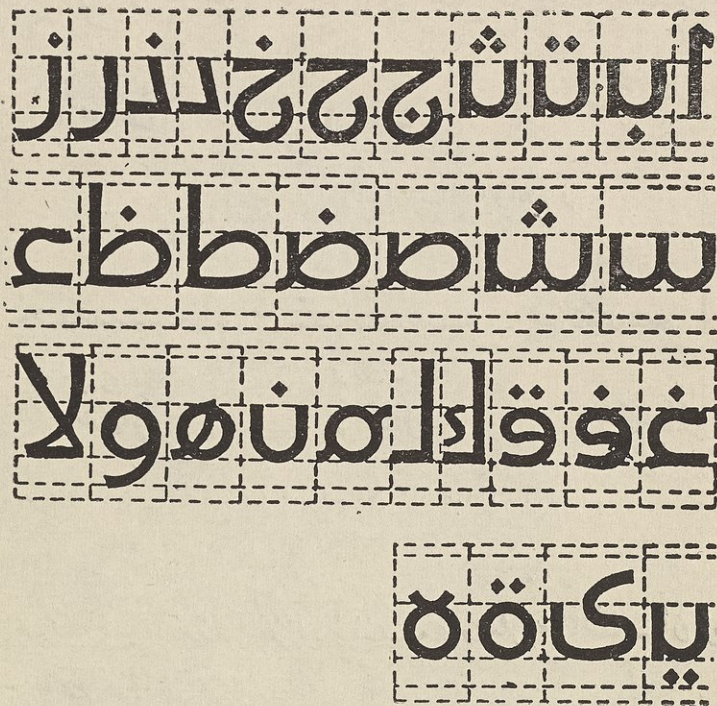
خير البر ما تعهد به المرء نفسه وخير بر النفس ان ترأ بها من مواقف الاعتذار

صفحة الرسوم الخاصة

*al sayfu asdaq unbasan min l kutubi
fay raddi hi l raddu bayna l riddi wa l la'ibi*

٧ - نموذج من اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي :

السيفُ اصدقُ أنباءً من الكتبِ في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ



٨ - ابجدية الاستاذ نصري خطار

وهي الحروف المقترحة لحل مشكلة الطباعة

صفحة الرسوم الخاصة

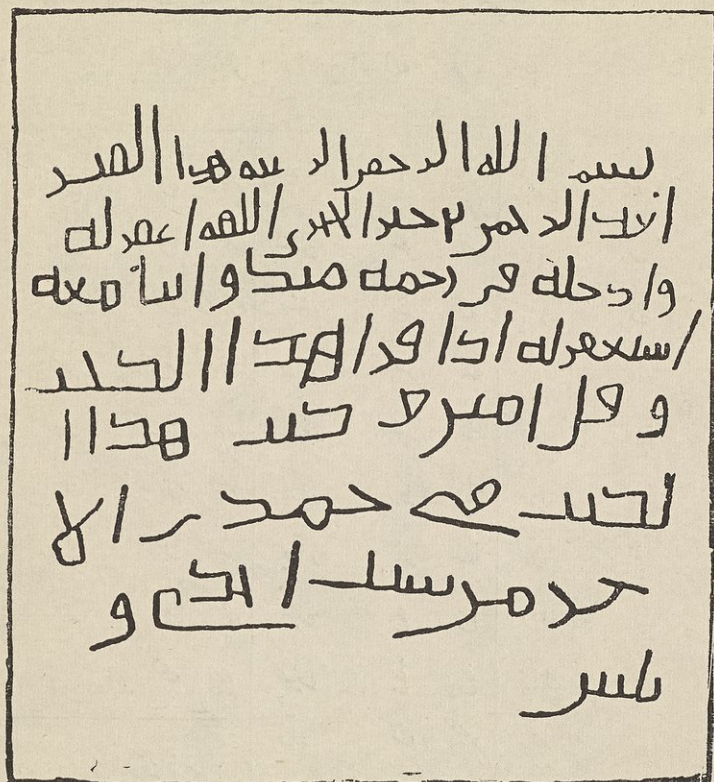
٩ - اقتراح الاستاذ عبدالعزيز فهمي ، الكامل

انظر الصفحة السابقة رقم - ٧ -

فان	ق	زاي	ز	الف	ا	ā
كان	ك	سبن	س	باء	ب	b
لام	ل	سبن	س	تاء	ت	t
ميم	م	صاد	ص	تاء	ث	t
نون	ن	ضاد	صه	ميم	ج	ج
هه	ه	طاء	ط	هاء	ح	ح
دار	و	طاء	ظ	خاء	خ	خ
همزة	و	عين	ع	دال	د	d
بار	ي	عين	غ	زال	ز	z
		فأو	ف	رأو	ر	r
أما الحروف المركبة فهي :						
(α) للفتحة و (α) للضممة و (ε) للأكسرة .						
وأما الأحرف التي لا تشبه لنصتها في العربية فهي :						
c, g, j, p, v, x.						
ويلاحظ أن الحروف المرسومة هنا هي حروف عادية أما الكبيرة اللاتينية (majuscules) فمعدومة وتكتب الحروف المأخوذة منه العربية يكون بتكبير رسمها عالية رؤسها دون كاسانها .						

صفحة الرسوم الخاصة

١٠ - صورة النقش الذي ابق لنا رسم الكتابة العربية في صدر الاسلام



ويدل ما فيه انه كان نُصباً على قبر رجل يدعى عبدالرحمن بن خـير
 أو جبر أو جابر أو جبير الحجري أو الحجازي .

السطر الأول : بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر . ٢ - لعبدالرحمن
 بن خير الحجازي اللهم اغفر له . ٣ - وادخله في رحمة منك وآتنا معه .
 ٤ - استغفر له اذا قرأ - ت - هذا الكتاب - الكتاب . ٥ - وقل آمين
 وكتب هذا . ٦ - لكتب في جمدي - جمادي - الا . ٧ - حر - الآخرة
 - سنت - سنة . ٨ - احدى وثلاثين - ثلاثين .

الاستاذ عبدالعزيز فهمي وقد أوجزناه ، ومقال الأستاذ احمد جاد المولى
وقد أسميته لفوري : لعب اللغة العربية ولاعبوها . فما اظن الاستاذ
جاد المولى جاداً . وقلت ان الاستاذ جاد المولى يمثل في نظري انكماش
المحافظة . وها انذا مورد فقرات من مقاله الطويل ، لنهس هذا الانكماش
في محافظته وتزمته كما لمسنا الفوضى في انطلاق الاستاذ عبدالعزيز فهمي
وثرته :

« ألا واننا قد انتهى اينا من فنون متن اللغة فن ظاهر الفضل ،
جليل المغزى الى ما به من طرافة تبعث على الطرب ، فهو يجمع بين
الفائدة والمتعة كليهما ، كالورد المنصور ، انت من رائحته وورقه بين
عبير وحرير .

اما سبيل التأليف في هذا الفن الطريف من متن اللغة فهو ان
تذكر اللفظة ثم تفسر بلفظة ثانية ، ثم تفسر اثنانية بثالثة ، ثم تفسر
الثالثة برابعة ، ثم تفسر الرابعة بأخرى ، وهكذا حتى تجتمع جملة صالحة
فيستأنف السياق بلفظة جديدة ويتبع فيها ما اتبع في اختها من قبل ،
ثم يطرد هذا النسق حتى نهاية الكتاب . »

الى ان يقول : « وفي هذا الفن الف فريت من عاء اللغة مؤلفات
ذات بال ، الا اننا لا ندري عداها ، فلقد عبثت بكثير منها ايدي الغير
كما عبثت بأمثالها من آثار قرائح السلف المجيد .

على ان الأيام اسارت لنا من كتب هذا الفن بقية دالة ، بيد ان
هذه البقية ظلت - حتى اليوم فيما نعلم - مخطوطة في دار الكتب المصرية ،
أو في خزائن من يعنون بجمع المخطوطات ، فلم يطبع منها كتاب حتى
تتعدد نسخه ، فيحظى بمطالعتها الجلم الغفير من شدة اللغة وطالبيها .

وانت جد خبير ان في بقاء هذه الكتب الباقية مخطوطة تعريضها
للتلف وحبسها عن ايدي الجمهور « !!! » ولذلك جردنا القلم لكتابة هذا
الفصل ... »

عن كتاب « المداخل » مؤلفه ابو عمر المطرز وهو من كتب هذا
الفن ويروي صاحبه عن ثعلب النحوي - وابو عمر هذا تلميذ ثعلب - .

أخبرنا ثعلب عن ابن الاعرابي قال : سألت اعرابياً ما رأيت
افصح منه منذ ثلاثين سنة : ما الجُحَال ؟ فقال : القشيب . قلت : وما
القشِب ؟ قال : الذُعاف . قلت : وما الذعاف ؟ قال : الذيفان . قلت : وما
الذيفان ؟ قال : الارون . قلت : وما الارون ؟ قال : السَّم . قلت : فما
السَم ؟ قال : ثقب الابرة . قلت : وما الابرة ؟ قال : رأس الرُّوق . قلت :
فما الروق : قال : المدري . قلت : فما المدري ؟ قال : قرن الجارية .
قلت : فما الجارية ؟ قال : الخولة . قلت : فما الخولة ؟ قال : الطبية . قلت
فما الطبية ؟ قال : الجراب الصغير . قلت : فما الجراب ؟ قال : بدن البئر
قلت : فما البدن ؟ قال : الشيخ المسن . قلت ، فما البدن ؟ قال ، درع
الحديد . قلت : فما البدن ؟ قال : الرجل التماسك في جسمه . قلت : وما
البدن ؟ قال : الثَّيْتَل . قلت ، وما الثيتل ؟ قال ، الحِطَّان . قلت ، فما
الحطان ؟ قال : البُعْغَيْبَغ . قلت ، فما البعغيغ ؟ قال ، العَلْهَب . قلت : فما
العلهب ؟ قال ، تيس الجبل ، وهكذا ...

وينهي الاستاذ جاد المولى مقاله بقوله « ... فلقد هالنا ما رأينا من
إغفاله » - يقصد هذا الفن -

هذا رجل من رجال العربية ، وعضو في المجمع العلمي يسمى
هذا اللعب فناً ويقول انه هالة ما رأى من اغفال هذا الفن وانه جرد

القلم لكتابة هذا الفصل ، وإن في بقاء الكتب مخطوطة تعريضها للتلف وجسبها عن ايدي الجمهور ، وإن هذه المخطوطات بقيت في خزائن من يعنون بجمعها فلم يطبع منها كتاب حتى تتعدد نسخه ويحظى بمطالعها الجهم الغفير من شدة اللغة وطالبها . »

فكيف نرجو بعد صلاحاً على يده وهل نفتظر اصلاحاً من مثله ؟ !

٩

جهود الجمع

والكلام عن الاستاذ يجزئنا الى الكلام عن الجمع - وسواء في ذلك مجمع القاهرة ودمشق - وجهوده ، وقد رأيت طرفاً منها في مقال الاستاذ جاد المولى واقتراحه بنشر كتب اللغة المفيدة . . . وها أنذا أقدم طرفاً آخر من جهد الجمع للعلامة الشيخ عبدالقادر المغربي .

كتب الاستاذ المغربي في مجلة الرسالة العدد ٢٧ السنة الثانية ١٩٣٤ مقالاً بعنوان : واخيراً النون . عن الانسيكلوبيديا Encyclo pédie . وبعد ان ذكر الأسماء التي اطلقت على هذه الموسوعة الثقافية التي تتضمن كل فن ومطلب من مطالب ثقافات الاعم ومقومات حضارتها - عدا اللغة - وهي :

الكوثر : واول من وضع هذا الاسم بطرس البستاني في معجمه العربي الجامع عام ١٨٧٦ . ثم اسماء دائرة المعارف .

لغات تاريخية وجغرافية : وقد وضع هذا الاسم احمد رفعت في الآستانة عام ١٨٨٢ .

مصور دائرة المعارف ، وقد أسماه بهذا علي سيدي محمد ، وعلي رشاد
في الآستانة ايضاً عام ١٩١٤

موسوعة ، ابراهيم اليازجي - سوريا .

كنز العلوم واللغة ، فريد وجدي عام ١٩٠٧ ، ثم بدا له فقيره عام
١٩٢٣ ب دائرة معارف القرن العشرين .

محيط المعارف ، أمر الله افندي . الآستانة

معلّمة ، الأب انستاس الكرملی - بغداد .

واخيراً النون

يقول الاستاذ المغربي انه بعد الجدل استبعد الجمع العلمي من
الاسماء ما كان مركباً كدائرة المعارف .

اما المفردات ، فالكوثر لا تدل على المراد من الانسيكلوبيديا
وموسوعة مختلف في اصلها وسلامة عروبتها « !!! » فلم يبق الا كلمة معلّمة
التي تدل على معنى وعاء العلم واشتد الجدل حول معلّمة ورفضها من رفضها
بحجة انها انما تدل على كتاب فيه علم ولا تدل على معنى الشمول والاحاطة
كما هو المقصود من الانسيكلوبيديا .

فرد على الاعتراض بأن المعلّمة تدل على الكثرة لأنها مصوغة على
وزن مأسدة . ومسبعة . ومذبذبة . ومقتاة . وملصة . اي ارض كثيرة
الأسود ، وكثيرة السباع ، والذباب والقثاء واللصوص .

واشتد الجدل وقال الرافضون ان كلمة سبعة واخواتها الدالة على
الكثرة انما هي صيغ خاصة وقعت للعرب في صفات الأرضين والاماكن

وحدها ، حتى ان ابن سيده عقد لهذه الكلمات في مخصصه جزء ٣ ص ٢٠٥ باباً عنوانه بقوله ، « باب مفعلة من صفات الأرضين » فكيف يصح لنا ان نجعلها من صفات الكتاب . ولم يبق لمعلمة الا ان تكون كصيغة مفعلة - وعاء الأقلام - وهذا يضيف من امر اختيارها لتحل محل الانسيكلويديا .

ثم قال البعض ان الياس المقدسي عضو الجمع اقترح وضع كلمة « النون » .

وقد رفض الاسناد المغربي هذه الكلمة ، وناقش في الدلالة على عدم توفيتها المعنى وجوازها .

هذا مثال آخر للنقاش الذي يدور بين اعضاء الجمع في سبيل الغاية التي انشيء من اجلها وعين اعضاؤها لها .

وبدهي بعد هذا ان تعيش كلمة موسوعة او دائرة المعارف ، بينما كان الاستاذ المغربي واعضاء الجمع يتلهون في جدالهم وابعاثهم .

وثمة جهود أخرى للمجمع انتج فيها شيئاً نضع منه عينة امام القارئ فقد سمي الجمع ترمومتر فرنهيت ، محرّ فرنهيت . وسمي فحم المتمعجات . وفي الرسم سمي البوز ، الوضة - ولست ادري ما منعه من استعمال الوقفة مثلاً وهي اسهل وادرج - وفي الموسيقى سمي التامبور ، البندبر او الدف ... الخ

هذا جانب من جهود المجمع عرضته على القارئ ليعرف اسباب قصور العربية عن اداء كثير من الألفاظ الاجنبية . وهنا تبدو هذه الحقيقة وهي ان المجمع يحيا حياته المتحجرة الخاصة به . وهو لا يقترب من الشعب . ولا يحاول ان يقترب . والكلمات التي يعربها يعربها ضمن

هذا النطاق للحياة الخاصة ، فلا يتداولها الناس وتبقى عملة مهجورة لا تصلح للاستعمال لان قوتها الشرائية مفقودة في سوق الحاجة .

١٠

لماذا لا نقل ونعرب

بعد أن تحدثت عن مشكلة اللغة العربية رسماً ونحواً وصرفاً ، وعن جهود الجمع في تحجير اللغة ، وعرضت مأساة العربية بين انطلاق الفوضى وانكماش المحافظة ، أرى ان اسأل : لماذا لا نقل ونعرب ونبسّط ؟ ان اية دراسة لتاريخ اللغة العربية تدلنا على ان في طبيعة اللغة ما يسمح بالنقل والتعريب والتبسيط . وان اللغة العربية البدوية ما كانت لتسد حاجة المجتمع العربي في ازدهاره أيام الحكم العباسي مثلاً لو لم تقبل التعريب والنقل . وانا اذكر هنا بعض الكلمات المأخوذة عن اليونانية كما ذكرها الاستاذ بندي جوزي بجامعة باكو في مجلة الجمع (١) .

ابليس . انجيل . ابريسم . اخطبوط . السرطان . ازميل . اسطول
اسطورة . اسطنبول . افريز . اقليم . اسفنج . برج . بقدونس او
مقدونس . بلغم . بندق . بطاقة . بيطار . ترس . ترياق . جنس . جسر
درهم . دكان . دمقس . زكاة . زنار . زوج . سفود . سيمياء .
طاووس . فانوس . فرخ . فرصة . قرنفل . قرنيط . قصدير . فضة .
قفل . قلم . قلنسوة . قمة . قميص . كتان . قنب . كيس . كيمياء .
مرجان . ملوخية . منديل . نافورة . ناموس ..»

إذن فقد أفاد العرب من التعريب - وليس في طبيعة اللغة العربية

ما يمتنع على ذلك - فلماذا لا نعرب اليوم وننقل ونتوخى السهولة واليسر في النقل قبل ان تم الكلمات الأجنبية ، وتخضعها للهجاء الخاصة لكل بلد عربي مع التحريف بحيث يصبح من العسر بمكان تعميم الكلمة التي يضعها المجمع وان توفرت لها عناصر اليسر والسهولة .

١١

القرآن ليس عمرة

والكن رب معترض على النقل والتعريب ، واقتراحات تغيير رسم الحروف ، بالقرآن . وهنا الحرج والاحراج ، لأن الحديث فيه لا يخلو من التأويل والتفنيد وتحميل الكلام اكثر مما يحمل ، عند ذوي الغرض ، او الفهم السقيم .

ولكنني استشهد بشيئين من القرآن نفسه : اولهما ان القرآن استعمل كثيراً من الكلمات غير العربية كالجبت والطاغوت وجهنم ، واستبرق ، وسندس ، وصراط ، وسجل . وثانيهما ان رسم القرآن لم يكن كما هو اليوم . فقد كان الرسم بدائياً يوم امر عثمان بجمع القرآن وليس لدينا نسخة من قرآن عثمان بتلك الحروف ، ولكن لدينا قطعة اثرية ترجع الى ذلك الوقت (١) .

والملاحظة الاولى على هذه القطعة ان الحرف العربي كان خالياً من التنقيط والشكل - وتتفق الروايات على أن الحجاج بن يوسف هو الذي قام بتنقيط القرآن بأمر من عبد الملك بن مروان مستعيناً بالخطاطين والحفاظ وان الخليل بن احمد هو الذي قام بتشكيل الحروف .

وهناك حقيقة تاريخية بالنسبة للكلمات العربية يعرفها كل من

(١) انظر صفحة الرسوم رقم ١٠

درس تاريخ اللغة دراسة وافية ، وهي ان الاسلام ابدل كثيراً من الكلمات العربية التي كانت تستعمل في الجاهلية لاتصال بعضها في اذهان العرب الجاهليين بشؤون وثنية او نظم جاهلية . ومنها اسماء الأيام والشهور . فقد كانت اسماء الأيام في الجاهلية هكذا : السبت : شيار . الأحد : اول . الاثنين : اوهن او اوهد . الثلاثاء : جبار . الأربعاء : دبار . الخميس : مونس . الجمعة : عروبة . وكانت اسماء الاشهر : المؤتمر . ناجر . خوان . ويصان . الحنين . ربي . الاصم . عادل . نامق . وعد . ورنه . برك .

ونخلص مما تقدم الى نتيجتين : أولاً ان القرآن ليس عثرة في طريق من يريد اصلاح اللغة رسماً ، او نحواً وصرفاً - ويروي لنا التاريخ هنا ان القراءات كانت متعددة في القرآن ، وقد بقيت هذه القراءة - فيما أرى - بفعل ظروف سياسية بحتة ، وجعلت لها الغلبة على غيرها من القراءات - .

وثانياً - ان اللغة العربية لم تمتنع على التطور ، وقد أفادت من النقل والتعريب كثيراً .

ولاني لأرى انه اذا اردنا لهذه اللغة ان تعيش فقد وجب علينا ان نعتبرها وسيلة - كأي وسيلة اخرى - وليست غاية . وان نعمل على تطويرها وجعلها صالحة للتعبير عن الحياة . فنغير - مثلاً - رسم حروف المطبعة لتساعد على نشر الثقافة ، ونلغي كثيراً من شواذ اللغة نحواً وصرفاً ، ونجعل للقاعدة صفة الشمول والاطلاق . ثم اخيراً : نعرب وننقل ونبسط .

في المهنة

حملني على الكتابة في الموضوع شاب دفع به إليّ صاحب الجريدة التي كنت أعمل بها لتدريبه واعداده للعمل في الصحافة . وقد سألت الشاب عما يزاول من عمل فقال انه موظف . وحين قلت له ان الصحافة تحتاج الى التفرغ ، اي الى وقته كاملاً اجاب بأنه سيتترك عمله .

وقد بدا لي ان اسأله عن الاسباب التي تدفعه الى العمل الصحفي لأعرف مدى ادراكه لعمله الجديد . وبعد حديث عرفت ان الصحافة عنده مهنة ذات سحر واغراء . فهي تجعله يحلم ، مثلاً ، بالنفوذ الواسع الذي تمنحه لمهنتها عند الرأي العام ، وفي دوائر الحكومة . وبالفرص التي تتيحها له في التحدث الى رجال السياسة وشخصيات المجتمع ، والاتصال بالناس ، وارتياذ الملاهي ، والاندية ، والحفلات التي قد لا يستطيع ارتيادها طوال حياته لو لم يعمل في الصحافة .

وهي تجعله يحلم بالحرية الواسعة التي يمارسها الصحفي في النقد — والتهجم احياناً كثيرة — هذه الحرية التي لا يمارسها مواطن مهما بلغ من القوة والسلطة والنفوذ . وبالراتب الضخم الذي سيتقاضاه حين يصبح صحفياً ناجحاً كبقية زملائه من الصحفيين الناجحين ، وبما سيدخل على نفسه من شعور الزهو حين يقرأ له الناس ويتناقشون فيما يكتب ،

ويختلفون ، فيؤيده بعض ، ويناكره بعض ، ويحايد بعض .

بمثل هذا كان يتصور العمل الصحفي : قبضة من الاحلام . لذلك حين سألته عما اذا كان يضع الى جانب احلامه هذه شيئاً من واقع المهنة بدت عليه الدهشة ! فليس للمهنة اي واقع في نظره . وانما هي شيء يستطيع ممارسته وبنجاح كل انسان يجيد الكتابة بلغة سليمة خالية من اخطاء النحو ، وجيدة خالية من اخطاء البلاغة !

وكان يتصور ان الصحافة عمل يؤديه الصحفي على هينة واتئاد . وانه يكفي ان تخرج الصحيفة بأي شكل ، وأي مقال ، واي خبر ليقبل الناس على قراءتها .

ولست احلام هذا الشاب بدعة ، فهي احلام كل شاب يطلب العمل في الصحافة ، يريد لذتها ولا يعرف مرارتها . وانا نفسي حين قررت ان تكون الصحافة مهنة لي لم يكن دافعي الى احترافها سوى القضاء على رتيبة الحياة ، اي كلاسيكيتها ، وجعلها بتنوعها في الصحافة شائقة حية . ولم اكن اعرف ما يتطلبه القضاء على هذه الرتيبة من حركة دائمة ونشاط مستمر ، وجهد دعوب لا يعرف للراحة مذاقاً ولا طعماً .

وثمة شيء آخر في واقع المهنة (١) يجب ان يدركه بوضوح كل من يريد العمل فيها ، هو غاية الصحافة . أهى تجارة وربح ؟ ام ثقافة وتوجيه ؟ والجواب هنا يلقي ضوءاً على قضية الصحافة ومهمتها وغايتها .

اذا كانت الصحافة تجارة وربحاً فهي سلعة ، لأن المادة تصبـح غاية وجودها . وهي تضحي في سبيلها بكل مـثل ومفهوم واذا كانت ثقافة فهي قيمة . لأن الحقيقة تصبح هدفاً لها وهي تضحي في سبيلها

(١) واقع المهنة - عندي - ليس حالها الراهن وانما هو حالها كما هو ممكن ، وواجب الوجود .

بشكل ما قد تجنيه ربح .

ولكن الصحافة لا يمكن - او الاصح - يجب ان لا تكون تجارة ورجماً بالمعنى الشامل لكلمة التجارة والربح كما انها لا تستطيع ان تكون ثقافة وتوجيهاً ، اي قيمة مطلقة .

ففي الاولى تصبح الصحافة أداة هدم بما تتمتع به من حرية وسلطان دون موجه ولا ضابط . وفي الثانية تفشل في صراعها مع البقاء لانها مقسورة على الخضوع لظروف وشروط مادية قاسية لا تستطيع انكارها مهما بلغت قيمة الاخلاق والمثل في نفس الصحفي من صلابة .

لذلك ارى ان الصحافة تجارة للثقافة . فهي تضع رسالتها العامة جانباً الى الحد الذي يضمن لها الاستمرار ، وهي تضع المادة جانباً الى الحد الذي يضمن بقاء هذه الرسالة كأساس لوجودها .

والتوضيح اقول : ان رسالة الصحيفة لا ترسم لها طريق النجاح - ونجاح الصحيفة هنا شرط بقاءها - وانما يرسمه القراء انفسهم . فبمقدار اقبالهم عليها او اعراضهم عنها يقررون مصيرها . صحيح ان القارئ المثقف ثقافة حقيقية يفضل الصحيفة التي تحمل رسالة ، ويدعمها بالاستمرار في قراءتها ، ولكن هذا الصنف من القراء نادر .

لذلك كان لا بد من ارضاء القارئ العادي الذي تنحصر قيمة الجريدة في نظره في الخبر لا في التعليق . ويحضرني هنا ما كتبه برناردشو الى احدى المجلات ذا كراً بعض الحقائق عن الصحافة . قال : ان عمل الصحفي في الاصل هو الاخبار وليست الفلسفة السياسية ، وان الجمهور لا يحتمل تلك الجمجمة الفارغة التي لا تحوي شيئاً ، كما لا يحتمل سخافة المدعين الوعاظ ، او هذيان السياسيين . قد يقرأ الجمهور لبعض هؤلاء الحق لانها خير من لا شيء ولكن متى وجد ذلك الشخص

الذي يستطيع تغذيته بشيء حقيقي ، فلن تجد لنهم الجمهور عندئذ لقراءته حداً .

وانا لا اريد أن انكر قيمة الرسالة بالنسبة للصحيفة فهو شيء جوهري . ولكنني أرى ان هذه الرسالة اذا اصطدمت بصراع الصحيفة للبقاء وجب وضعها جانباً لتنسجم الصحيفة مع ظروفها المادي القاسر بأقل ما يمكن من التضحية . على ان لا تصل الى حد القضاء على جوهر الرسالة واساسها .

ولا أقصد بالرسالة هنا ، الحزبية ، فالرسالة عندي غير هذا المفهوم . انها المبادئ والمثل والقيم الاخلاقية العامة التي يحملها انسان - اي انسان - في نفسه فتضبط حياته وتصرفها ، وتوجهها وجهة الخير والجمال والعدالة . وهي بالنسبة للصحافة تعهد ضمني بين الصحفي والقارئ يتعهد فيه الصحفي بتقديم الخبر الصادق والتعليق المختص قدر ما يعلم وجهد ما يستطيع .

قلت ان نجاح الصحيفة - اي بقاءها - مرهون برضاء القارئ العادي الذي تنحصر قيمة الصحيفة عنده في الخبر دون التعليق . وقد وجب ان احدد نوع الخبر الذي يريده القارئ ، ولا ينسجم مع الرسالة العامة للصحيفة .

ماذا يطلب القارئ ؟

انه يطلب المداعبة ، والاثارة ، مداعبة غرائزه واثارة عواطفه وتلقها .

وهو يطلب البريق واللمع والوهج لأنه يتلهى بها عن التفكير المركز والاستغراق العميق . وهو يطلب الایجاز والاقتصاد ، لأنه

منهك ، ولأن وقت فراغه ضيق محدود . فقد تقسمته السينما والراديو والمهني ، ووسائل الثقافة الأخرى .

وهو يطلب الخبر السريع ، ولا يهتم بمصدره ولا بصدقه قدر ما يهتم بما يرضيه منه ويلائم ذوقه .

وهو يطلب بعد هذا ان ترسم الصحيفة صورة لحياة المتحضرة . صورة القلق والحيرة والاضطراب . هذه العناصر التي استبدت بحياته وعصفت بالبقية الباقية من الاستقرار والاطمئنان الديني في قلبه ، الذي كان يتقاده . ثم لم تعوضه الحضارة الحديثة عنه عوضاً .

وهناك شيء آخر يطلبه القارئ في الصحيفة هو الصورة . فقد أثر انتشار السينما في الصحافة اذ نقل بعض جاذبيتها من التفكير الى النظر . والقارئ لا يبذل في الصورة مجهوداً عقلياً كالذي يبذله في المقال او الخبر . وقد قلّت بنمو هذا العقل السينمائي قوة التركيز عنده وساعد على ذلك هذه الحضارة المرهقة للاعصاب فقد جعلت القارئ يتهرب من كل ما يحتاج الى مجهود واستغراق .

ويعتقد « ديهاميل » ان هذه الظاهرة الطفيلية التي تلوح لأول وهلة قليلة الأهمية قد مست كل قيمة للصحافة كوسيلة للتثقيف .

« فالصور شيء طريف ، وهي تقدم لنا بسرعة خير ما تحمل ، كما انها تساعدنا - احياناً - على فهم اشياء لا تستطيع الالفاظ ان تعبر عنها بسهولة . ولو انها أدمت بنصوص ممتازة جيدة التحرير لزادت فهمنا للعالم . وفي المؤلفات المصحوبة بصور ما يشهد بذلك شهادة يينة . ولكن الصورة اخذت تحتل في جرائدنا اليومية مكاناً مروعاً ، وقد قتلت النص لانها تستغرق جانباً من ميزانية الجريدة ، اولانها تنجي وتطرد التحرير

فحسب ، بل لانها توهم بان النص لا فائدة فيه . اذ يقول رجل القرن العشرين لنفسه « ما الداعي لقراءة كل هذا المقال المكتوب بحروف صغيرة ، وانا ادرك الموضوع بمجرد نظرة . القراءة متعبة ، وانا منك بعد ان قضيت نهاري كله في العمل او في الديوان ، ثم انه لا فائدة من القراءة . لا فائدة اصلاً . »

كما يفعل الطفل - اذ يبلل اصابعه ليمر من صورة الى صورة دون ان يقف ليقراً النص لانه لا يعرف القراءة - كذلك يفعل رجل القرن العشرين اذ يمر ببصره المجهود العابر الكليل على الصفحات المنشورة امامه ، وعنده ان اي مجهود مهما كان تافهاً اكبر مما يستطيع . »

هذا هو بايجاز النوع الذي يريده القاري ، والذي قد لا ينسجم مع رسالة الصحفي ولكنه يضطر الى تلبية القاري والاستجابة لرغبته تحت ضغط الظروف والشروط المادية القاسية التي تتعرض لها الصحيفة .

اما غير ذلك مما يمس جوهر الرسالة واساسها - كما اسلفت - كالخبر المأجور ينشر لمصلحة تضر بمصلحة الجماعة مثلاً او الاعلان ينشر لمصلحة اقتصاد اجني يزاحم اقتصاداً وطنياً فليس مما يدخل في باب التضحية لانه يمس الجوهر وينفذ الى الصميم . اي يصبح تضحية بالرسالة ذاتها .



أَبُو مُحَسِّن

على بعد خمسة وسبعين ميلاً الى الجنوب الشرقي من مكة ، كانت مضارب ثقيف راقدة في سفح غزوان مستلقية في احضان الطائف .

وثقيف هذه قبيلة من ايد ، وقيل من هوازن (١) أسلمت في السنة التاسعة للهجرة ، وانجبت رجالاً حدث عنهم التاريخ ، منهم «الأجرد» الشاعر الشريف . و « طريح بن اسماعيل » شاعر الوليد بن عبد الملك وخذنه المقرَّب .

ومنهم الحارث بن كلدة طبيب العرب ، والمغيرة بن سُعبة والي البصرة لعمر بن الخطاب ، ومحمد بن القاسم فاتح السند .

ومنهم ايضاً امية بن ابي الصلت . وايضاً ، وايضاً ابن جلا وطلاع الثنايا ، صاحب اهل العراق !

ولقد عاشت ثقيف حياة جاهلية بأدق ما توحى به كلمة « الجاهلية » من استجابة للحس ، واستمتاع باللذة ، فأربت ، وزنت ، وعاقرت الخمرة وذهبت في ذلك مذهباً لا يميل بها الى قصد ، ولا تميل فيه الى اعتدال ! وكان من شروط النبي عليها في الصلح ان تمتنع عن هذه جميعاً .

(١) ابن الاثير ج ١ ص ٢٨٨

ولم يكن بد لتقيف من ان تعيش على هذا الاسلوب من الحياة وتأخذ حظها منه ، فقد كانت الطائف مبتلة العشايا ، مطولة الاسحار تندهده (١) اليها من قمة غزوان مويجات الهواء حاملة رسالة الحياة فتبعث في القلوب هزة ونشوة ، وتحملها على مركب الالهو والمتعة .

ولم يكن بد لجلبها غزوان من ان تفتظم على خواشيه الخضر مجالس الراح فقد عرف بكرومه الممتدة ، ودواليه المعروشة ، وعنبه العذب المذاق وزيبه الحلو الطعم .

قيل ان سليمان بن عبدالمكك رأى بيدار الزبيب عن بعد وقد قدم الحنج فظنها حراراً اي اراضي بركانية فقال صحبه : ليست حراراً هذه يا امير المؤمنين ولكنها بيدار الزبيب !

عاشت اذن ثقيف على الفتوة الجاهلية ، وصبوها فشربت الخمر ، وولعت بشره ، فقادها الى الربا والزنا ، واباح لها ما اباح من مثل هذه المقابح ! ولم يستطع الاسلام بتعاليمه المحرمة ان ينزع من نفسها هذا الولوع المتمكن غير انها تخرجت به من المظاهرة ، فاستخفت وشربت على حذر .

في هذه البيئة المطبوعة على حب الخمرة ، وفي هذا الجو الذي يتشوق اليه القلب ويهفو ، والمناخ الذي تفتح به النفس وتحتلج ، نشأ شاعرنا الفارس أبو محجن الشَّقْفِي .

نشأ نشأة طليقة حرة ، فلم يتحرج ، ولم يتحفظ وكانت سيرته تنمى على نحو مختلف عن انداده من ثرّوات ثقيف !

على انه من المحقق انه قد كان في طبعه رقة وفي نفسه دعة ، ومن المحقق ايضاً انه كان حمي الانف ذكي القلب ، وانه كان بعد هذا

(١) تندهده ، تندحرج

وذلك صناجة شعر ، ومُسْعَر حوب .

استمع منه يقول :

لا تسأل الناس عن مالي وكثرته
القوم اعلم اني من سراتهم
اعطى الحسام غداة الروع حصته
واطعن الطعنة النجلاء عن عرض
عف المطالب عما است نائله
وقد أجود وما مالي بذى فنع (١)
سيكثر المال يوماً بعد قلته
وسائل الناس عن حزمي وعن خلقي
اذا تطيش يد الرعيذة الحقيق
وعامل الرمح أرويه من العلق
واكتم السر فيه ضربة العنق
وان ظلمت شديد الحقد والحنق
وقد أكر وراء الحجر الفرق
ويكتسي العود بعد الينس بالورق

ولقد اسلم ابو محجن في أخريات الناس ، ولكنه مضى في سيرته
على ما كان قد اختط لنفسه ، فكان طلب نساء ، وتبع ابكار وغيد ،
عشق جارية من الأنصار فاحتال لرؤيتها بعد ان امتنعت عليه ، فترى
بزي فلاح وأجر نفسه عاملاً في حائط يبنى بجانب بيتها ، واخذ يطل
من كوة بستان هناك ! وكان يعرف ما في فعلته من جراءة فهو يقول :
ولقد نظرت الى الشموس ودونها حرج من الرحمن غير قليل
إلا انه لم يكن يملك امر نفسه ، فقد عاش كما اسلفنا حراً طلقاً
يركب لشهوات نفسه الجحوش شيطانه الماكر اللجوج .

وكان ايضاً بما اباحت له فلسفة حياته رضيع كأس وشرب
قدح ، فكان للخمرة محباً ، واليها مشوقاً ، وبها كلفاً . وكان كثيراً ما
يسرف حتى تلعب به وتذهب كل مذهب فيلشد وهو يترنج :

ان كانت الخمر قد عزت وقد منعت وحال من دونها الاسلام والحرج

(١) فنع : كثرة

فقد أبا كرها صرفاً واثربها ريباً واطرب أحياناً وامتزج
وقد تقوم على رأسي جويرية فيها اذا رفعت من صوتها غنج
وترفع الصوت أحياناً وتخفضه كما يطن ذباب الروضة الهزج

وكان له في وادي العقيق منزله اهل المدينة مناخ ومبرك يغدو
عليه ويروح في مصبحه ومساء مع صبح له يتحوقون (١) حوله فينشدهم
ويغنونه ، وتدار عليهم بين هذا وذاك اكواب الحمرة الشّمول ،
يتساقونها في غفلة وعلى حذر عللاً بعد نهل (٢) .

ولقد يترشش منها على وجوههم دقائق يحسون لها لذة الظمان
أصاب الماء ، ونعيم الحب بلغت نفسه صبوتها فعاد منقوع القلب، مبرود
الغليل .

ولقد تأخذ بعد هذا ابو محجن نشوة الطرب فيدور ويضرب
الأرض برجله ، ويدمدم وانه لفي مراحه في يوم من غبوق (٣) نديّه
يتماوح (٤) من سكر في مطارفه (٥) الموشاة وهو ينشد :

اذا مت فادفني إلى اصل كرمه تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني بالفلاة فاتني أخاف اذا ما مت ألا ادوقها

إذا بحرس الليل لعمر بن الخطاب ، وهو يوم ذاك خليفة المسلمين
يقبضون عليهم جميعاً ويدخلون بهم على عمر .

(١) يتحوقون : يجلسون حقة.

(٢) شرب عللاً بعد نهل : شرب شرية ثانية بعد اول - والعلل الشرية الثانية .
وقد استعملتها بمعنى مرة بعد مرة

(٣) الغبوق . شرب العشاء

(٤) يتماوح : يترنح

(٥) المطارف : اردية من خز مفردها مطرف

ويغضب عمر العادل الشديد ، عمر الذي لا يعرف في الدين مجاملة
ولا يأخذه في الحق ضعف فيسألهم في غضب :

هاه ! أشربتم الخمر بعد ان حرّمها الله ؟ !

فيرد ابو محجن عن صحبه :

بنفسي انت يا امير المؤمنين كيف حرّمها الله وهو الذي يقول :
ليس على الذين آمنوا جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا .. ؟

بخأ الجواب عمر ، ووقف موقف الحائر يقرب الفكر على وجوهه
ويدير الرأي على اضراجه واشكاله ، ثم استشار صحبه فاختلفوا ، واحتكوا
جميعاً إلى علي بن ابي طالب ، فقال : ان كان هذا مرمى الآية وتفسيرها
فقد وجب ان يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير ! واني ارى ان يقتلوا
ان كانوا قد شربوا الخمر مستحلين فان شربوها مستحرمين فالحد الجزاء .

فسألهم عمر ، فقالوا جزعين :

والله يا امير المؤمنين ما داخلتنا ريبة في حرامها . فجلدهم عمر ،
واقام عليهم الحد حتى انتهى الى ابي محجن فصاح به .

ويحك يا ابا محجن ! لقد طال عمهك وقد طال خبطك ! ويحك !
افما آن لك ان تقصد منهج الحق والهدى ؟

سامع ابو محجن مقالة عمر ورأى الدرة في يده حتى جاش جاشه
وقال يحدث نفسه في نفسه : ويحك يا ابا محجن لا ام لك اترهب الحد ؟
اتخشى الوعيد ؟ ثم انبرى منشداً :

الم تر ان الدهر يعثر بالفتى	ولا يستطيع المرء صرف المقادر
واني لذو صبر وقدمات اخوتي	ولست عن الصباء يوماً بصابر
رماها امير المؤمنين بحتفها	فخلانها يكون حول المعاصر

فقال عمر محنتاً بعناده :

هاه .. هاه .. والله لأزيدنك حداً !

ولكن صوت عليّ يرتفع قوياً : ما ذلك لك يا عمر . لقد قال ولم يفعل
وكان بعد هذا ان اصر ابو محجن على معاقرة الخثرة واصر عمر
على حده حتى بلغ ذلك سبعاً او ثمانياً فيما يروى ! وحتى اعيأ امره عمر
فنفاه إلى جزيرة ينفي فيها الخلعاء عادة ، وعهد الى « ابن جهراء » من
حرسه في امره ، وحذره من ان يدع معه السيف فهو فارس فاتك .
ولكن ابا محجن يضع سيفه في جوالق مليء دقيقتاً ، ويمضي ، ويمضي
حارسه معه . فلما اظلا (١) من شاطئ البحر قعدا الاستراحة من عناء
التعب ووقدة الحر . وامتد بهم الجلوس الى ان افرجت الظهيرة ، وفاءت
الأظلال ، ومروا النسيم الفاتر رخياً تداعب انامله الأجفان ، فأخذت
الحرسى نعسة وما هو إلا ان يستغرق في نومة قصيرة حتى يقوم
ابو محجن الى سيفه فيخرجه وينخذه به بنخزة موجعة ، ردته الى صحوه
مذعوراً ، ومالمح ابا محجن وعيناه تقدان وفي يده السيف حتى تغشته
رعدة ثم انطلق عدو الجواد ألهبه سوط فارسه .

ومضى ابو محجن على وجهه شريداً طريداً ثم قصد سعد بن ابي وقاص
في العراق يوم الكتائب من ايام القادسية .

وجاء الحرسى عمر بالخبر ، فقال مغضباً : أفلت الخبيث ؟ أولى له (٢)
ثم علم بتوجهه الى سعد فتقدم اليه في حبسه ، فحبسه سعد يوم وضوله
ولو قد ترك امره اليه لأعفاه .

(١) اظلا : اقتربا

(٢) أولى له . كلمة تهديد ووعيد

ودارت رحي الحرب يوم ذاك ، وكان يوماً عبوساً بين الفرس
والعرب ، فما كاد ابو محجن يسمع صليل السيوف ، ولهاث الخيل حتى
أرعدت خصائله نحوه ، واصطخبت اواذيه حمية فحاش واضطرب ثم
انشد وقد رأى سلمى زوج سعد :

كفى حزناً ان تطعن الليل باقنا	واترك مشدوداً عليّ وثاقيا
اذا قتت عناني الحديد وغلقت	مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا اهل كثير واخوة	فقد تركوني واحداً لا أخاليا
وقد شف جسمي اني كل شارق	اعالج كبراً مصمتاً قد برانيا
فله دري يوم اترك موثقاً	وتذهل عني اسرتي ورجاليا
حيساً عن الحرب العوان وقد بدت	واعمال غيري يوم ذاك العواليا
هلم سلاحي لا ابالك اني	ارى الحرب ما تزداد إلا تماديا
ولله عهد لا اخيس بعهده	اثن فرجت الا ازور الحوانيا (١)

فالتفت سلمى وقد اثر بها ما سمعت من شعره ، فقالت :

ويحك ابا محجن ! ما بك خوف السجن ام خشية الحد ؟

قال : بل شوق الحرب في علوج الفرس يا سلمى . ثم قال : هل
لك من خير إليّ ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عني وتعيطني البلقاء
فرس سعد ولله علي ان سلمت ان ارجع اليك حتى تضعي رجلي في
قيدي . فترددت سلمى ، ثم اجابت واطلقته .

ركب فارسنا البلقاء ، وانطلق انطلاق السهم المراس فأوجر
الفرس مشق رحمه (٢) ، ووخر سنانة . وقال قائل في الناس هذا هاشم

(١) الحوانيا : الحوانيت .

(٢) اوجر : طعن بالرمح في الصدر .

ابن عتبة ، وقال سعد وقد رأى عجباً :

الطعن طعن ابي محجن ، والضرب ضرب (١) البلقاء . ولولا انه في محبسه
لقلت انه لهو ! وما زال ابو محجن يضرب بقية يومه قدماً حتى ظهرت
كفة المسلمين .

وعاد ابو محجن في الغروب يتمايل عجباً فلما رآته سلمى عائداً ظنت
ان قد هرب فقالت تعيره :

من فارس كره الطعان يعيرني ربحاً اذا نزلوا بمرج الصفر

ونظر ابو محجن الى سلمى ، فأجابها اسرع ما اجاب :

ان الكرام على الجياد مبيتهم فدعي الرماح لأهلها وتعطري

وثى ابو محجن عنان فرسه ، وعاد الى الحرب يضرب في العدو حتى
انتصف الليل ، وتحاجز اهل العسكرين ، فعاد ابو محجن الى قيده
وهو يقول :

لقد علمت ثقيف غير نخر بأنا نحن اكرمهم سيوفا
واكثرهم دروعاً سابغات واصبرهم اذا كرهوا الوقوفا
فان احبس فقد عرفوا بلائي وان اطلق اجرعهم حتوفا

وكانت سلمى قد رأت فعله وسمعت قوله فأعجبت ببطولته ووفائه
وعزة نفسه فدخلت على سعد زوجها فصالحته وكانت مغاضبة ، وانباته
بما قد كان .

وسر سعد ، فدعاه وهو في نشوة اعجابه وغبطته فقال : لك

(١) الضرب : الوثب .

حريثك يا ابا محجن ووالله لا احبس بعد اليوم رجلاً اداله الله من
اعداء المسلمين ، ولا اعاقبه ما شرب !

فقال ابو محجن وقد بدت عليه سمات عنصره الطيب : لا والله
ياسعد ، ما كنت لأشربها بعد اليوم وقد عفوت ! لقد كنت آنف ان
يقال خاف ابو محجن الحد .

ومضى ابو محجن وهو يقول :

رأيت الخمر فاسدة وفيها مناقب تهلك الرجل الحلما
فلا والله اشربها حياتي ولا اسقي بها ابداً نديماً

وكانت وفاته في السنة الثلاثين للهجرة او قراها .



راعي الغنم

مكة اليوم في أمر مريب ، فقد استحدث فيها محمد بدعة الاله الجديد ، والدين الجديد ، فعكر من صفوها الخالص ، وبدل من طبعها الآمن ، وغير من عيشها الهادي ، وبدد من نظامها المرسوم . ولكن الدعوة تأخذ طريقها ، ولكن الرسالة تشق لنفسها في الشوك طريقاً ، فما تلبث ان تحيا وتنمو ، ثم تتوالد فتنتشر ، فتكون من بعد همس الشفاء ، ونجوى القلوب . وما كانت لتنجح ، وقريش من علمت عصبية ولكننا الاسلام قدر محتوم ، قد سبقت به الكلمة ، فهو يمضى لا يرد راد ولا يدفعه دافع .

وتطلق قريش - وكانت آن ذاك قد اطفأت الحياة ، واطمعتها الثروة ، فزيدت من كل ضلالة ، وتلذت بكل مستكره مقبوح ، وذهبت مع الهوى الجانح كل مذهب - تطلق قريش هذي ، لأبي جهل يده في الصابئة يعسفهم اقبح العسف ويكيد لهم شر الكيد ، ويأخذ الرقيق منهم والأحلاف بمكاوي النار في الجنوب وفي الصدور . ثم لا يكفيه ، فيحرق ويخرب ، ويطن في تحريقه وتخريبه .

هذا ابو جهل في طريقه يسعى لبعض شأنه ، وعلى شفثيه كلام يحدث به نفسه :

جدّ يا عمرو في تسفيه محمد واجتهد في التنكيل بصحبه ومتبعيه .
جدّ ، جد ، فقد استقاد لك الملاء من قريش وعما قريب تصير اليك
الزعامة فيها .

يقول هذا ابو جهل ، او ما هو منه ، ثم يمضي في طريقه الى غايته
خفيف السير ، حثيث الخطى ..

وما هو إلا ان يقترب من المسجد حتى يترامى الى اذنيه همس
تخافت به الشفاه . فيلقي السمع ولكن الهمس لا يبين ، فيتقدم مستخفياً
ويطأ الأرض حذراً مستأنياً ، متمسحاً بالجدران كبعض لصوص الليل ،
حتى يكون من الصوت غير بعيد ، فيتوضّع له ، ويستعلن .

كان الصوت يرتفع قوياً حاراً فيه ثورة وتمرد : إلا انكم يا احلاف
قريش وعبيدها في حكم الاسلام سواء . ليس لغيركم فضيحة
ولا فضل إلا ان يكونا فضيلة الخلق وفضل الحق ، ولا لأمرهم من صغيرهم
مزية الا ان تكون مزية التقوى ...

الا انكم مظلومون ! قد حكمتكم الذلة ، واستبد بكم السادة من قريش
فكان فيهم المنع والحرم والموسر ، وكان منكم البائس والعبد والمعسر !

لم لا تستوون ؟

لم لا تستوون ؟

الا انكم مظلومون فتوروا لحكم المضررم ، ومخدوعون فاكشفوا
عن عيونكم أغطية الغفلة ، ودعوا ما يحماكم عليه ابو جهل تبّت يده من
اِثَار البغضة ، وحب النفرة ، فان ذلك باطل زائل ...

الا ان من آثر السكوت والرضى منكم ، خليف ان يبقى عبداً نكدا .

وارتفع صوت آخر يقول : صدقت .. صدقت يا عبدالله فقد جلبنا
الدهر أشطره ، وقد بلونا العمر الا اقله فلم نلق من قریش الا شراً ،
ولم نبذل الا مرأ ، ولم نشهد الا شقاء دائماً ، والا عذاباً مقيماً .. وهما
نحن اولاء لم يبق فينا من صفات الخلق الا وجوه قد اصفرها الفقر ،
وعيون قد اجف منها الشقاء ماء الحياة .. وقد ، وايم الحق ، آن لنا
ان نستوي .

وانطلق الصوت الأول من بعد شجياً ندياً مؤثراً :

« الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس
والقمر يحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعا ووضع
الميزان ، ألا تطفئوا في الميزان ، واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »
وتناول ابو جهل ينظر من القوم من حيث يرى ولا يرى ..

يا للجراءة !! عبدالله بن مسعود !

عبدالله حليف قریش ، يؤلب الرقيق ويستعدي الأحلاف على
قریش .

ولجأ الجمع المتحلق ابو جهل ، فما اسرع ما تفرق واستخفى .
ولكن عبدالله لم يبرح ..

وصاح ابو جهل : ويحك .. او قد فعلتها يا راعي الغنم ! او قد
صبأت ! انفرة من قریش وتمرداً عليها ! انزوعاً الى محمد وايماناً بكفره !
وعلاه ابو جهل بالقوس فأدمى جبينه ، فثارت في نفس عبدالله
ثائرة الكرامة المهدورة ، فاذا هو يدفع في صدر ابي جهل ، واذا هو
يلطم حروجه ، ثم يتولى ، خفيفاً نشيطاً فيذهب الى صحبه فيقول : ما

كان عدو الله اهون علي منه اليوم ، فان شئت غاديت به بمثلها غداً . ولكن صحبه يقولون : حسبك يا عبدالله فقد اتيت ما يكرهون ثم يشيرون عليه بالهجرة الى الحبشة .

واما ابو جهل فقد عاد وبطن الأرض احب اليه من ظهرها . فجمع المحمّتين من مخزوم ووقف فيهم يقول وفي عينيه شرير قدح : اترضون المهانة ؟ لقد واللات والعزرى اتى ابن ام عبد امراً اذا .. لقد اتى ذنباً لا يغسله الا دمه .

ومضى ابو جهل في صحبه يتربص . ولكن عبدالله قد غادر مكة فلا سبيل اليه .

ودار الفلك دوره .. وانصرفت الأيام الهرمة على طريق الزمن وكانت وقعة بدر ، خرجت فيها قريش لمحمد وصحبه من المهاجرين والانصار شفاء لما في صدرها من حقد وغل .

ودارت رحي المعركة ...

هذا هو عبدالله يتقدم الصفوف سباقاً ، سريع الحركة ، فما يرى إلا ذاهباً جأياً ، ميامناً مياسراً ، مهلاً مكبراً ، واني لفي بعض امره هذا ، اذا هو يرى ابا جهل ملقى على الأرض ، وفي صدره جرح ينزف . وكان به رمق يتسح له ان يسمع ، وكانت فيه بقية تتيح له ان يقول : لن تقبلت .. لن تظفر ياراعي الغنم .. وغامت الدنيا على وجه ابي جهل واذا هو يتمثل تاريخاً غبر ، يتمثل ابن مسعود في مكة مذيعاً بدعة محمد ، ويتمثله الى جدار المسجد محرضاً رقيق قريش ، مستعداً احلافها . ثم هو يتمثله بعد هذا ، لاطماً حر وجهه ، وهو سيد مخزوم .

يا للجرأة . يا للوقاحة . يا للفعلة النكراء يأتيتها العبد الزنيم ..

ويرده الى رشده او بعض رشده صوت عبدالله يقول : ويحك
يا أبا جهل ، لقد كدت لمحمد ، وها قد ردكيدك الى نحوك ، ها قد
اخزأك الله ولقأك مصرعك ، فأين آلهتك تدفع عنك ؟ اين اللات
والعزى ، اين مناة وهبل ؟

وكان صوت عبدالله يتناهى الى ابي جهل خافتاً ضعيفاً .. فسكت
ولم يرجع اليه جواباً . وما هو الا ان ينقطع الصوت حتى يغيب ابو جهل
عن دنياه . فيحتر ابن مسعود رأسه ، ويمضي وفي اذنيه صوت من حياته
في مكة ، صوت كان يأتيه كالهمس خفياً : ويحك او قد فعلتها يا راعي
الغنم ؟ او قد صبأت ؟ ... وفي ذهنه كانت صورة يذكر فيها يدأ علتته
بالقوس فأدمت جبينه .. وعلى شفثيه كان تسبيح وحمد : يا رب .. سبحانه
سبحانك .. ما اقواك ، ما اكرمك ، ما اعدلك .

ويذهب ابن مسعود الى النبي مكبراً يعالنه الخبر وفي يده رأس ابي
جهل .. فكبر النبي ، وكبر المسلمون ...

وبقي عبدالله بعد هذا ملازماً للنبي ، فكان احب صحبه ، واقربهم
له ستماً ، وادناهم اليه دلاً ، واشبههم به سكينه وهدياً . وكان صاحب
سواده ، وسواكه ، ونعله .. حتى قال فيه صلى الله عليه وسلم ذات يوم :
لو كنت مؤمراً احداً دون شوري المسلمين ، لأمرت ابن أم عبد .
وحق ظنه الناس بعض اهله .

كان خفيفاً نحيفاً ، قصار القامة ، آدم البشرة ، قضيف العظام ،
يرسل شعره الى ترقوته . قدم مكة راعياً لعقبه بن ابي معيط الأموي
ثم أسلم في حادث له مع الرسول ، وابي بكر .

ابوه مسعود بن غافل من هذيل ، وامه أم عبد بنت هند بنت

الحارس بن زهرة بن كلاب .

ولم يوجد كان رحمه الله احفظ منه للقرآن ، وعنه أخذ اهل العراق قراءتهم ، وكان بينهم وبين اهل الشام اختلاف ، فقد اخذ اولئك عن ابي بن كعب كاتب الرسول بعد عثمان وعلي .

قال له النبي مرة : اقرأ علي سورة النساء . قال عبدالله : أقرأ عليك وعليك قد انزل ؟ ! فقال النبي : اقرأ ، فاني احب ان اسمعه من غيري . فقرأ عبدالله حتى بلغ قوله تعالى مخاطباً الرسول « .. فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد . وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثاً ... » فبلغ التأثير منه « صلعم » مبلغ البكاء ثم قال : « من سره ان يقرأ القرآن غضاً كما انزل فليقرأه على قراءة ابن ام عبد . »

وما لبث النبي ان قبضه الله اليه ، فانفرد عبدالله بنفسه ، ثم اقام في حمص ما اقام بعد ان فُتِحَتْ على المسلمين حتى استقدمه عمر بن الخطاب فعهد اليه امر الكوفة مع عمار بن ياسر ، وكتب الى اهلها :

اني بعثت عمار بن ياسر اميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من اصحاب الرسول ، من اهل بدر وأحد والخنق وبيعة الرضوان ، فاقتدوا بهما ، واطيعوا واسمعوا قولهما ، ولقد آثرتكم بعبدالله على نفسي .

وبقي عبدالله اميناً على بيت مال الكوفة معلماً لأهلها حتى كانت خلافة عثمان فأبقاه ، ثم استقدمه بعد ان كتب فيه الوليد بن عقبة - أخي عثمان لأمه - امير الكوفة الجديد اذ ان عبدالله لم يرض عن سيرته ولا عن سيرة عثمان وقد جهر بهذا .

واساء اليه عثمان فيما يروى ، فقد اغلظ له القول وامر احد غلمانه
فضرب به الارض عند المسجد فكسرت احدى ضلوعه ! وندم عثمان
فسعى اليه معتذراً ، ثم وسط زوجاً من ازواج النبي عنده فلم يقبله الله
وساطتها ، وما لبث ان مات بالمرض في المدينة عام اثنتين وثلاثين هجرية ،
ودفن بالبقيع عند قبر عثمان بن مظعون . وكانت وصيته ان لا يصلي عثمان
عليه فأتفذه عمار بن ياسر .

رحمه الله ، فقد كان رجلاً من رجال الاسلام ، وبطلاً من ابطال
الدعوة . وهل تبلغ البطولة فيما تبلغ أعلى من منزلتها حين يجرؤ راع
محروم من اسباب القوة ، مجرد من وسائل المنعة ، هاجر من قصايا نجد
في التماس الخبز لا أدّم معه ، فيخرج على قريش ويكون اول من يقرأ
القرآن جهراً ؟ !!

ان في ذلك لعبرة ، وان في ذلك لمثلاً ، رحمه الله ، واجزل
له المثوبة .



بين الشعبي والأخطل

كان الشعبي يسير في حرس الحجاج مهوراً وجلاً ، متعزاً بخطاه ،
وهو يحدث نفسه في نفسه :

ويحك يا عامر ! فيم يرسل اليك الحجاج يرتادك ؟ . أثمّ شرك
يحبّل لك ؟ ايكوّن حظك منه حظّ سعيد بن جبير ومن قد ضوى معه
إلى ابن الأشعث ؟ .

ويح الظلوم الغشوم ، ويح الجائر الماكر . ايستحل دماً ، او
يفعلها ابن الرعاء ؟ !

لا . ذلك وهم يا عامر . وفيم ؟ او لم تقر بذنبنا : « بنا بنا المنزل ،
واحزن بنا الجنب ، واستحسنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وخبطتنا
فتنة لم نكن فيها بررة اتقياء ، ولا فجرة اقوياء ...

ولكنه الحجاج يا عامر لا ام له . وما اخاله الا كائداً بك شاركاً
لك ، غادراً غدرة النمر الشرس .

ويحك يا عامر . شقيت وشقيت ام حملتك . اما والله قد وقعت ، وما
اخالك منفلتاً منه دون مساءة تنالك ، ومكروه يرميك .

وانطلق بالشعبي وعليه خفّة الموتى حتى ادخل على الحجاج وليس

عنده احد ، فأقعد مهوئاً ما يحير لفظه ، وهو يرتعش وجبينه يرشح عرقاً .
وادرك الحجاج ما به من فرق ، فرحب وحيا ، واقبل عليه ببسطه
ويمارحه حتى افرخ روعه وسرى عنه .

قال الشعبي : جعلت فداك يا ابا محمد ، والله لقد آتيت وبطن الأرض
احب الي من ظهرها !

قال الحجاج : ويحك يا عامر . او قد بلغت هذا منك ؟ !

قال الشعبي : اي والله . فما كنت احسب الا انك موردني حياض
الموت ومبدلني بالدنيا ناراً تلظى !

فقال الحجاج وقد بدت على شفثيه ابتسامة : لا بأس عليك يا عامر
فانما اردت الحديث .

فقال الشعبي : يغفر الله يا ابا محمد .

قال الحجاج : هات يا شعبي حديثي : كيف علمك بكتاب الله ؟ قال
الشعبي : الي فيه المنتهى : قال : فبالحديث ؟ قال : غني يؤخذ . قال :
فبالفرائض ؟ قال : قتل ارضاً عالمها ؟ قال : فبالانساب ؟ قال : ابن بجدتها
قال : فباللغة ؟ قال : قاموسها ومحيطها . قال : فبالشعر ؟ قال : راويته ،
ومع انه اقل بضاعتي فأنا استطيع ان اروي لك منه شهراً كاملاً
لا افرغ .

قال الحجاج ، لله ابوك . انت والله بغية امير المؤمنين ، فلقد ارسل
الي ان قبلك عامر الشعبي فابعث به الي يناقني الحديث (١) . وقد اردت
على معرفتي بمكانك في العلم والأدب ان اسألك ما انت فيهما ، فلقد تعلم ما

(١) يروي ابن عبد ربه في العقد الفريد أن عبد الملك ارسل الى الحجاج: ابعث الي
رجلاً بصاح للدين والدنيا اتخذه سميراً وجليلاً ، فقال الحجاج : ما له الا الشعبي .

امير المؤمنين وقاراً وجداً وورعاً ، وعلماً بالفقه ، وحفظاً للشعر ، وبصراً
بالنقد ، في ثقب ذهن ، وذراية لسان ، وسحر منطق . وان امير
المؤمنين بعد هذا لتعيب نصيب . فان اردت حظوته فأرح قلبه بشيء يليه .
ما سمع الشعبي قول الحجاج ، حتى استأذن لفوره فقد اخرجته الغبطة
من ثيابه . فلما كان الغد ركب فله الرحول ، وخرج يغذ السير الى
الشام في اثني عشرة ليلة . .



ما ان بلغ الشعبي دمشق ، حتى انطلق من مساء يومه الى قصر
الخلافة يطلب الاذن على عبدالملك بن مروان . فأذن ، وهش له وبش
به . واستدناه فأقعده قريباً منه عن شماله .

وكان امام عبدالملك رجل تمشى في رأسه الشيب وقد تدلى من
عنقه صليب ، وانبعثت من فيه رائحة الخمر .

قال عبد الملك وقد أقبل عليه : ويحك ! من أشعر الناس ؟

فأجاب الرجل وفي صوته زهو وعجب : ومن غيري يا امير
المؤمنين !

ما طرق الجواب اذن الشعبي حتى اظلم ما بينه وبين عبدالملك ولم
يصبر أن هتف : من الدعي يزعم انه اشعر الناس يا امير المؤمنين ؟

فالتفت عبدالملك وقد عجب من عجلة الشعبي واستخفافه بقدر شاعره
فقال : هذا شاعرنا الأخطل يا عامر .

فقال الشعبي وقد زوى ما بين عينيه : اشعر منه والله يا امير
المؤمنين من يقول :

هذا غلام حسن وجهه مقبل الخير سريع التام (١)
 للحارث الأكبر والحارث الأصغر ، والحارث خير الأنام
 خمسة آباء ، هم ما هم هم خير من يشرب صوب الغمام
 لم يكد الأخطل يسمع هذا التحدي حتى استجاش فالتفت الى
 عبد الملك يقول : من هذا المجترى يا امير المؤمنين ؟ فقد عبد الملك : انه
 الشعيي يا ابا مالك نادرة الدنيا ، وفقه العراق .
 فلوى الأخطل ، وزم . وهز كتفيه .

قال عبد الملك وقد اقبل على الشعيي : ما تقول في النابغة يا عامر ؟
 قال الشعيي : سابق محكوم له بالسبق يا امير المؤمنين . فقد خرج عمر
 ابن الخطاب يوماً وبابه وفد غطفان فقال : يا معشر غطفان ، أي شعرائكم
 الذي يقول :

حلفت فلم اترك انفسك ريبة وليس وراء الله امرء مذهب
 قالوا النابغة .

قال فأبي شعرائكم الذي يقول :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع
 قالوا النابغة .

قال فأبي شعرائكم الذي يقول ،

الى ابن محرق اعملت رحلي وراحتي وقد همدت العيون
 اتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون

(١) الأبيات للنابغة الذبياني

فألفت الامانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون
قالوا النابغة .

قال هذا اشعر شعرائكم

والنفت عبدالملك الى الاخطل يقول ، يا ابا مالك ، اكنت تحب ان
لك قياضاً بشعر احد ؟ فقال الاخطل ، لا . ولكنني وددت يا امير
المؤمنين انني قلت ابياتاً قالها رجل منا . كان والله مغدق القناع ، قليل
السماع ، قصير الذراع . قال عبدالملك وما قوله ؟ قال الاخطل :

انا محيوك فاسلم ايها الطلل وان بليت وان طالت بك الطيل
حتى وصل الى قوله :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
ما سمع الشعبي هذا حتى جمع جمعه ، وتنحنح وهنف وفي صوته رنة
سخر : تالله لقد قال القطامي خيراً من هذا . فقال عبدالملك : وماذا
قال القطامي ؟ فأنشد الشعبي :

طوقت جنوب رحالنا من مطرق ما كنت احسبه قريب المعنق
إلى ان قال :

واذا يصيبك والحوادث جمّة حدث حداك الى اخيك الاوثق
ليت الهموم عن الفؤاد تفرقت وحلى التكلم للسان المطلق

اعجب عبدالملك بالايات ، ولكنه ما ان رأى شاعره الاخطل وقد
هاج واضطرب ورشح جبينه وداخله الغيظ حتى اخذته الحمية ، وبداله
ان يذهب عنه بعض ما به فقال : ما اشعرك يا اخطل حين تقول في الحمرة :

وتظل تنصفنا بها قروية ابريقها برقاعه ملثوم
فاذا تعاورت الاكف زجاجها نفحت فشم رياحها المزكوم

فكانت هذه اللفتة من عبد الملك كافية لتسل من الاخل غضبه
وغيطه . فعطف على الشعبي يسائله في زهو المعجب وشماتة المنتصر ،
أسمعت بمثل هذا ؟

ولكن الشعبي ما كان ليدع الاخل دون ان يناله فتتحنج وامر
يده على لحيته وقال ، لو يُذْشَر شيخك الاعشى لزدعك :

وادكن عاتق حمل ربحل صبحت براحه شرباً كراما
من الاتي حملن على المطايا كرج المسك تستل الزكما

فهتف الاخل كمن خواط ، قدوس ، قدوس . وهز عبد الملك
رأسه . وحكم للأعشى .

شعر الاخل بالخطر فقد حشا مسامعه هذا العراقي بما ارمضه .
وقد سدد اليه سهاماً مراشة اصابته منه المقاتل . فقال وقد دارت
عيناه في رأسه ، وفي صوته مشابه من صفير الريح وهدير البعير ، اسمع
يا شعبي . ان لك لفنوناً في القول تتصرف بها فتعجب ، وانا لنا لفناً
واحداً لا نحسن غيره . وان بك لغزارة ومحايلة ، وان بنا لسياساً وحرانا
فدع ما انت فيه قبل ان تحملي على اكتاف قومك فأدعهم حرصاً .

سقط في يد الشعبي وتحير ، فهو يعرف لسان هذا التغلبي السلط .
وهو يعرف ما قد يجره على قومه هذا الذي لم يتورع عن هجاء الانصار
فقال وقد تكش في ثيابه كمن رش بماء بارد في قوس الشتاء ، أقلني
يا ابا مالك ، فلن اعود .

وضحك عبدالمملك وقد دخل على قلبه سرور بما كان بين الشعبي
والاخطل . ثم التفت الى الشعبي فقال ، اخبرني يا عامر ، اي شعراء
الجاهلية اشعر من النساء ؟ قال الشعبي : الحسناء . قال : ولم فضلتها ؟
قال لقولها في صخر :

وقائلة والنعمش قد فات خطوها لتدركه ، يا لهف نفسي على صخر
ألا ثكت ام الذين غدوا به الى القبر ماذا يحملون الى القبر

فقال عبدالمملك ، اشعر منها يا شعبي ايلي الاخيلية حين تقول في
في توبة بن الحمير :

مهفف الكسح والسربال منخرق عنه القميص لسير الليل محنق
لا يأمن الناس ممساه ومصبحه في كل حي وان لم يغز ينتظر

فهز الشعبي رأسه وسكت . فقال عبدالمملك : واحدة بواحدة يا شعبي
فقال الشعبي : لن ازيد يا امير المؤمنين .

وبقي الشعبي بعد هذا ملازماً عبدالمملك بن مروان فكان اول من
يدخل عليه وآخر من يفارقه . وكان يدخل السرور على عبدالمملك
فقد كان مزاجاً فاثي الدعابة ، الى سرعة جوابه وحضور بديهته .

مرَّ به خياط فقال له الشعبي : عندنا حب مكسور تخطه ؟ .
فقال الخياط : نعم ان كان عندك خيط من ريج . وقيل له : ما لنا نراك
ضئيلاً ! فقال : زوحت في الرحم . ذلك انه ولد توأماً . وسأله الحجاج
يوماً كم عطاءك ! فقال : ألفين . قال : ويحك كم عطاؤك ! قال : الفان
قال الحجاج : كيف لحت ؟ قال الشعبي : لحن الأمير فلحت فلما اعرب
اعربت ، وما كان لي ان يلحن الأمير واعرب .

وسئل عن اسم امرأة ابليس فقال : هذا زواج ما شهدناه . وقال
له رجل : ما تقول في الذباب ، قال : ان اشتهيته فكله .

وكان الى خفة روحه هذه ورقة حاشيته عالماً حتى قال الزهري :
العلماء اربعة : سعيد بن المسيب في المدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن
البصري في البصرة ومكحول بالشام . وكانت الناس تقول بعد الصحابة
ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه .

وكان يقول عن نفسه : ما كتبت سوداء في بيضاء الا حفظتها ،
وما حدثت انساناً بحديث مرتين .

وكانت وفاته بالكوفة فجأة ، وقد اختلف فيها كما اختلف في ولادته .



زرياب

معلم الناس المروءة

.. قال الرشيد :

لقد اعجبني ما تذكر من امر تلميذك وما تصف يا اسحق . فأحضريه
لعل حاجتي عنده .

فلما كان الغد ، وانعقد سامر الرشيد احضر اسحق تلميذه زرياب .

قال الرشيد : ما معرفتك بالغناء يا زرياب ؟

قال زرياب : أحسن منه ما يحسنه الناس يا مولاي ، وأكثر ما
أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن إلا عندك ، ولا يُدْخِر إلا لك ؛ فإن
أذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك .

فأمر الرشيد باحضار عود استأذه اسحق ؛ فلما أدنى اليه وقف
زرياب عن تناوله .

قال الرشيد : ما بك ؟

قل زرياب ، لي عود تحتته بيدي ، وأرهفته باحكامي ، لا ارتضي
غيره ، وهو بالباب ، فإن أذن لي امير المؤمنين باستحضاره غنيت .

قال الرشيد : ذلك لك . وامر باحضاره ، فلما ابصره قال ، ما منعك ان تستعمل عود استاذك وما اراها إلا واحداً ؟ !

فقال زرياب : ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي غنيته بعوده وان كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي . واما انهما واحد فقد صدقت يا مولاي ؛ ولا يؤدي النظر غير ذلك ، ولكن عودي وان كان في قدر جسم عوده ، ومن جنس خشبه الا انه من وزنه في الثلث او نحوه . وقد صنعت اوتاري من حوير غزل بماء ساخن فأكسبها أناته ورخاوة . واتخذت بمبها ومثلها (١) من مصران شبل اسد فلها في الترم والصفاء والجمارة والحدة اضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان . ولها من الصبر على تأثير وقع المضارب عليها ما ليس لغيرها .

قال الرشيد ، غن يا زرياب ، فانما تحكم الأذن . فحس زرياب عوده ثم اندفع يغني .

يا ايها الملك الميمون طأره هارون راح اليك الناس وابتكروا فما اتم غناؤه حتى طار الرشيد طرباً ، وقال ، والله لولا اني اعلم صدقك يا اسحاق وتصديقه لك ، انك لم تسمعه قبل ، لأنزلت بك العقوبة ، اتركك اعلامي بشأنه ، نخذه اليك ، واعتن به حتى افورغ له من بعض عملي فان لي فيه لنظرا .

سقط في يد اسحق ، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب وقال له :

يا علي ؛ ان الحسد اقدم الأدواء ، والدنيا فتاة ، والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت

(١) وتران من اوتار العود

عليه من اجادتك ، وعلو طبقتك ؛ واني قصدتُ منفعتك حين ذكرتك
لارشيد فاذا انا وقد اتيت نفسي من مأمها ، وعن قريب تسقط منزلي ،
وترتقي انت فوقى ، وهذا ما لا اصاحبك عليه ولو انك ولدي ، فتخير
في ثنتين لا ثالث لهما : ان تذهب غني في الأرض العريضة لا اسمع لك
خبراً وأنهضك لذلك بما اردت من مال وغيره ، او ان تقيم على كرهى
ورغمى مستهدفاً اليّ ، نفذ حذرک ، فليست والله ابقى عليك ، ولا ادع
طريقاً الى اغتيالک ، باذلاً في ذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك وتخير .

وكان زرياب يعلم قدرة اسحاق على انفاذ مايريد ، فاختار الضرب في
الأرض العريضة ، واعانه اسحق فراش جناحه ، ومضى يبني مغرب
الشمس .



غادر زرياب بغداد وفي نفسه حسرة ، حتى كان بافريقيا فاتصل
بصاحبها زيادة الله الأغلي ، ولكنه مل المقام بعد ان لم يطب له فقصد
منها الى المغرب الأقصى وكتب الى امير الاندلس الحكم بن هشام ، وكان
مولعاً بالموسيقى فاستأذنه في ان يصير اليه ، فأذن له من فوره ، ولكنه
ما ان عبر البحر وتأهب للرحيل الى قرطبة حتى بلغه نبأ وفاة الحكم
فهم ان يقفل ادراجه لولا أن عبد الرحمن بن الحكم امير
الاندلس الجديد تقدم اليه في المجيء مُنيله ما يرغب ، باذلاً له ما تصبو
اليه نفسه من مال وجاه .

وخرج عبدالرحمن بنفسه لتلقيه فأدخله قرطبة ليلاً مع اهله
وانزله في دار حسنة واسنى له الجوائز ، وخلع عليه الخلع ، واجرى
عليه مائتي دينار راتباً كل شهر ، وعلى كل واحد ممن قدم معه عشرين
ديناراً ، وأقطعته من الدور والبساتين والضياع ما يُقوّم بأربعين ألف

دينار ، وجعل له مائة مملوك في ركوبه بين يديه . فلما علم ان قد
قضى له سؤاله ، وانجز موعوده ، وارضاه . استدعاه فلما سمع غناه
اطرح كل غناء سواه ، وجعل بينه وبينه باباً خاصاً يدخل عليه منه
كلما راق له السماع واشتهاه .



لم يكن زرياب مغنياً جيداً فحسب ، فقد كان الى اجادته للغناء
عارفاً بالنجوم والجغرافية ، شاعراً فصيحاً . ولكنه الى الغناء اميل
واقبل ، وبه اشغف واعرف . وكان الى هذا ذكي الحس ، سلس الطبع
لطيف المزاج ، خفيف الروح ، ساحر الحديث ، حلو الشمائل .

اسمه الحقيقي ابو الحسن علي بن نافع ، وزرياب لقب غلب عليه .
وتقول كتب التاريخ ان الكلمة مأخوذة عن الفارسية واصلها « زر »
وهو الذهب ، و « آب » وهو الماء ، فيكون معناه ماء الذهب تشبيهاً
لخلاوة شمائله او جماله .

ويترجم له البعض فيقول ان زرياب لقب غلب عليه في بلاده من
اجل سواده مع فصاحة لسانه ، وشبه بطائر اسود غرد عندهم .

وهو قول اقرب الى الصواب وادنى من الحقيقة . فزرياب اسم
لطائر هو ابو زريق ، ولكنه ازرق اللون أدكن ، وليس أسود ولا
حلو التغريد .

وقد فعل زرياب بالاندلس ما لم يفعله مغن آخر ، فقد زاد اوتار
العود الاربعة وترّاً خامساً اختراعاً منه ، واعتاض من مرهب الخشب
مضرباً من قوادم النسر للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الاصابع
وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه . وجعل قاعدة الغناء البدء في

النشيد بأي تقر كان ويأتي في اثره بالبسيط ثم يختم بالحركات والاهزاج وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بألحانها ، وقد حسب ان الجن تطارحه وتعلمه ، فكان يهب من نومه مسرعاً عجلاً فيدعو جاريته غزلان وهنيدة فيأخذان عودهما ويأخذ عوده ويقيد ما وقع له . واكبر الظن ان زرياب كان يحسب ما يتخيل له في إلهامه شيئاً من الجن ، كما ظن ذلك من قبله ابراهيم الموصلي .

وكانت لزرياب طريقة في التعليم مبتكرة . يقول المقري ، « وكان اذا تناول الالتقاء على تلميذ يعلمه أمره بالتعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة . وان يشد صوته جداً اذا كان قوي الصوت ، فان كان لينه أمره ان يشد على بطنه عمامة فان ذلك مما يقوي الصوت ولا يجد له متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم . فان كان ألس الاضراس لا يقدر على ان يفتح فاه او كانت عادته زم اسنانه عند النطق راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث اصابع ، يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه . وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره ان يصيح بأقوى صوته ، يا حجام ، او يصيح آه ويمد بها صوته فان سمع صوته بها صافياً ندياً ، قوياً ، مؤدياً لا تعثره غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس عرف ان سوف ينجب ، وأشار بتعليمه وان وجده خلاف ذلك ابعده » .

ومعنى هذا ان زرياب قد اهتمدى بثاقب نظره وسلامة حسه الى خير اسلوب في تعليم الغناء وانه وضع بهذا قواعد مدرسية للتعليم لم يسبقه اليها سابق ولحقه فيها الكثيرون .

ويقول ابن خلدون : « . . فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، وطما منها بأشبيلية بمر زاهر وتناقل منها بعد ذهاب غضايرتها الى بلاد العدو بأفريقية والمغرب واتقسم على

امصارها ، وبها الآن منها صباية على تراجع عمرانها وتناقص دولها .

ولم يقتصر اثر زرياب في الاندلس على الغناء وصناعته ، بل لقد يكون في الحياة الاجتماعية ابعداً واكبر خطراً .

فقد اصبح زرياب قدوة في مطعمه وملبسه واسلوب حياته . كان كل من في الاندلس من رجل وامرأة يرسل جمته مفروقة وسط الجبين عامة للصدغين والحاجبين ، بخاء زرياب فخذف هو وولده ونسأوه شعورهم وقصروها دون جباههم وسووها مع حواجبهم ، ودوروها الى آذانهم واسدلوها الى اصداعهم فاتبعه الناس .

وكان زرياب اول من اجتتى بقلة الهليون ، واوجد انواعاً من الاكل والتقلية واستبدل آنية الزجاج عن آنية الذهب والفضة وجعل اغطية الموائد من الادييم لأن ذلك انطف لها وآنق .

ولبس الثياب ملائماً بينها وبين الفصول فجعل لكل فصل لوناً ، وعلم النساء ان يبسطن فوق ملاحف الكتان انطاع الادييم اللين . وغير هذا كثير ، حتى قيل عنه : معلم الناس المروءة .

وقد أخذ عن زرياب كثير من الجواري اشهرهن مصابيح ، التي كتب صاحب العقد الفريد الى مولايها يقول :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد ما كنت أحسب هذا الضن من احد
لو ان اسماع اهل الارض قاطبة أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فخرج مولايها حافياً وادخله الى مجلسه فتمتع بسماعها .

ومنهن « منفعة » وهي جارية ادبها زرياب وعلمها احسن اغانيه حتى شبت ، وكانت رائعة الجمال ، وكانت تقف بين يدي الامير تغنيه وتسقيه فأحبها فلما فطنت لاجبابه بها أبدت له دلائل الرغبة فأبى الا التستر فغنته

بايات لها :

يا من يغطي هواه من ذا يغطي النهارا
قد كنت املك قلبي حتى عقلت فطارا
يا ويلتا اترأه لي كان او مستعارا
يا بأبي قرشي خلعت فيه العذارا

فانكشف امرها لزياب فاهداها له وحظيت عنده .

وكان زرياب ايضاً كما اسلفنا شاعراً اديباً غير انه لم يبق لنا من شعره ما يجعلنا نقول فيه برأي سوى مقطوعات صغيرة لا تليق بشهرته ، وان تميزت بخلوها من التكلف . منها قوله :

علقها ربحانة هيفاء عاطرة نضيرة
بين السمينه والهزيلة والطويلة والقصيرة
لله ايام لنا سلفت على دير المطيرة
لا عيب فيها للمتيم غير أن كانت قصيرة

والبيت الأخير في المقطوعة بيت جميل يذكرنا بقول القائل :

ليالي جعلن شتات المني ولا عيب فيهن إلا القصر

وقد خلف زرياب اولاداً ذكوراً ثمانية هم : عبد الرحمن . وعبيد الله . وجعفر . ومحمد . وقاسم . واحمد . وحسن . ومثنى اناثاً هما : عليه وحمدونة . وقد أخذوا جميعاً عن ابيهم بعض صناعته وسبق من بينهم عبد الله ، فبعد الرحمن . ولكن عبد الرحمن هذا كان شديد الزهو كثير العجب ، فكان لا يسلم مجلس يحضره من كدر ، ولو تهيأ له بعض ما كان لأبيه من خلق لكان حرياً ان يكون شيئاً يذكره التاريخ .

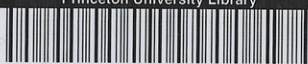
وقد توفي زرياب عام ٢٣٠ هـ .

وقعت في الكتاب أخطاء بسيطة
لا تغيب عن فطنة القارئ الكريم
فنعذر عنها ونعتبر هذه الملاحظة
تصحيحاً لها .



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 073553305

2269
.3745
.311

P